الامام السجاد عليه السلام
على زين العابدين

عبدالقادر احمد عطا

بسم الله الرحمن الرحيم

الامام السجاد على زين‌العابدين (عليه السلام)

كاتب:

عبدالقادر أحمد عطا

نشرت فى الطباعة:

عبدالقادر أحمد عطا

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الامام السجاد علی زین‌العابدین (علیه السلام) ----- ۷
اشارة ----- ۷
مدخل البحث ----- ۷
اشاره ----- ۷
اصل التشیع ----- ۷
بعد الامام ----- ۸
بعد الامام الحسین ----- ۹
علی مفترق الطریق ----- ۱۱
رأس أهل الملامة ----- ۱۶
مواهب روحیة ----- ۲۱
عالم أهل‌البیت ----- ۲۴
مکانه السیاسی ----- ۲۶
مکانه الاجتماعی ----- ۳۳
الکریم الزهد ----- ۳۴
السجاد ----- ۳۹
آداب سلوکیة ----- ۴۱
ناس لا یصلحون للصداقة ----- ۴۱
لا تبالغ فی المدح ----- ۴۲
لا تصحب غیرک الا علی طاعة الله ----- ۴۲
من أدب العلماء ----- ۴۳
الفکر، و الاعتبار بالموت ----- ۴۴
مکانته فی التصوف ----- ۴۵

وفاته ----- ۵۰

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۵۱

الامام السجاد على زين‌العابدين (عليه السلام)

اشارة

المؤلف: عبدالقادر أحمد عطا

طبع فى سنة: ۱۴۲۴ ق / ۲۰۰۴ م

الطبعة: الاولى

مدخل البحث

اشاره

لكى ندرك الوزن الحقيقى لشخصية الامام السجاد على زين‌العابدين بن الحسين بن على بن أبى‌طالب رضى الله عنه، لابد من عرض و جيز لفكرة التشيع و تطورها، و مدى انفعال الامام السجاد بها، و موقفه من تلك الفتنة العمياء التى عمت كثيرا من أمصار الاسلام، و شملت مختلف وجوه النشاط الانسانى كلها، لأنه شخصية معتبرة من ثمرات تلك الحركة العقيدية و السياسية التى سيطرت و لا زالت تسيطر على كثير من البلدان و الثقافات. هو ثمرة من ثمارها، ولكنه ليس ثمرة مؤيدة لما وصل اليه التشيع من غلو و خروج عن الواقع الى مستوى الأسطورة و الخرافة و التطرف الروحى الذى يعدو على ظاهر الأحكام و القوانين العامة للاسلام، بل كان ثمرة هادئة متعقلة يحاول أن يعود بالمسلمين من الجماع الى الاعتدال، و من الغو الى التوسط، و من التطرف الروحى الى الخط الفاصل بين المادة و الروح، فلا يغرب فى الروحانيات حتى ينسى الواقع، و لا يفرق فى المادة حتى ينسى الروحيات.

اصل التشيع

أصله فى اللغة ما ذكره تقيروزابادى من أن «شيعة الرجل: أتباعه و أنصاره، و الفرقة على حدة، و يقع على الواحد و الاثنين و الجمع، و المذكر و المؤنث، و قد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا و أهل‌بيته، حتى صار اسما خاصا لهم، و الجمع: أشياع وشيع». فالشيعة هم: المؤمنون بحق على رضى الله عنه فى الخلافة و الامامة، و فى تفضيله على اخوانه من الصحابة، اما بالنص أو بالوصف، و فى اضفاء الحق الالهى على الامام رضى الله عنه و على حقوقه السياسية و الدينية معا. و لقد كان للامام رضوان الله عليه منزلة خاصة، فقد أسلم صغيرا، و كان ختن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و ألصق الناس به، فتشرب روح الاسلام، و عاش ربيب النبوة الناهل من معينها، و كان خليفة النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى أهله، كما كان له من الصفات الجسدية و جرأة القلب، [صفحه ۶] و شجاعة النفس ما يؤله بحق لنوع من العظمة الظاهرة و الباطنة قل أن نجده فى انسان، و رأس ما يكون شخصيته العظيمة علمه الواسع العميق حتى اشتهر بفقه المعضلات فقيل فيه: «قضية و لا أباحسن لها». و كذلك فتوته و فروسيته الفائقة مع تركه الدنيا لأهلها، و هيامه بالمثل الأعلى حتى أجمعوا على أنه «لافتى الا على، و لا سيف الا ذوالفقار». أما بداية التشيع فقد وقع الخلاف فيها بين مفكرى المسلمين. فهناك اجماع على أن الحقل العام الذى نبتت فيه الفكرة يمتد من بداية الاسلام الى ما بعد مقتل الامام مباشرة. فمن قائل ان التشيع ظهر فى حياة النبى صلى الله عليه و آله و سلم، اذ كان لعلى آنذاك مريدون روجيون باعتباره لازم الرسول فى اوائل الدعوة، و عاصر الحركة الروحية الهائلة التى انبثقت مع الدعوة فى قلب النبى عليه الصلاة و السلام و من القائلين عدا أحمد أمين، و أما ابن‌خلدون فيرى فى كتابه «العبر» أن التشيع قد حدث بعد وفاة النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و من قائل يقول: ان التشيع قد ظهر مقابلا لحركة الخوراج، و ابن‌النديم يقول: انه ظهر حينما أطلق بنفسه هذا الاسم على جيشه الذى حارب به طلحة و الزبير. أما

الدكتور طه حسين فيرى أنه نشأ بعد قتل الامام. و على أى حال فالتشيع باعتباره مذهب روحيا كان معاصرا لحياة النبى صلى الله عليه و سلم، أما باعتباره مذهبا سياسيا فنحن نرى أنه نشأ مع ولايه الامام للخلافة، و ان كان لم يتسع و يتبلور الا بعد قتله. و ذلك لأ التشيع الروحى للامام كان واضحا فى سيرة سلمان الفارسى، و أبى‌ذرالغفارى، و عمار بن ياسر، و المقداد بن الأسود، و كما يؤكد اليعقوبى قد تطور التشيع بأنه قد «تخلف عن بيعة أبى‌بكر قوم من المهاجرين و مالوا مع على بن أبى‌طالب، منهم: العباسى بن عبدالمطلب، و الفضل بن العباس، و الزبير بن العوام، و خالد بن سعيد، و المقداد بن الأسود، و سلمان، و أبوذر، و عمار، و البراء بن عازب، و أبى بن كعب».

بعد الامام

كان الامام قد لمس تدهور المثل الأعلى الاسلامى، و تحوله الى المصلحة الشخصية فقال فى أسى و حسرة كما جاء فى نهج‌البلاغة: «ألا و ان بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم». [صفحه ۷] و لا شك أن من كانوا حول الامام قد شعروا بآلامه و حسراته على تدهور معنوياتهم، و نماء مادياتهم، أو بمعنى أوضح على عدم التوافق بين قوتهم و جرأتهم و بين ما يهدفون اليه من تحقيق المثل الأعلى، و ذلك حين اندفعوا بتيار قوى الى التخازل، و كتاب نهج‌البلاغة ملىء بما يصور ذلك الموقف الصعب الذى وقفه الامام من شيعته. و قتل الامام، وانتصر الطرف المقابل بزعامة معاوية انتصارا كاملا فى الحقل السياسى. و ازدادت حسرة الشيعة بتنازل الامام الحسن عن الخلافة عام۴۱ ه حقنا للدماء، و ايثار الآن يتبنى آل البيت النبوى كل المثل الاسلامية التى أسسها جدهم العظيم، و التى توشك أن تهدد تحت وطأة الأهواء الصارخة، و الفتنة العاصفة. و فى نفس الوقت كان معاوية رضى الله عنه يؤسس ملكه على خط معاكس، فكان كما يروى الطبرى يأمر ولاته «ألا يجيزوا لأحد من شيعة على و لا أهل‌بيته شهادة». كما أن «بحرمان من عرف بموالاة على من العطاء، و اسقاطه من الديوان و التنكيل به، و احراق داره» كما روى ابن أبى‌الحديد. و شاع لعن على و أهل‌بيته على المنابر فى صلوات الجمع على رءوس الأشهاد، و كان الهدف من هذا العمل المجانب للصواب كما يقول ابن أبى‌الحديد «أن يربى عليه الصغير، و يهرم عليه الكبير، و لا يذكر له ذاكر فضلا». و نجح معاوية فى اقناع أهل الشام بأحقية الامام باللعن، حتى لقد رفض أهل حران الكف عن لعن الامام حين أمرهم عمر بن عبدالعزيز بالكف عنه و قالوا: «لا صلاة الا بلعن أبى‌تراب». و كان الكثيرون يرون أن أباتراب هذا هو «لص من لصوص الفتن». و الحق أنه اسم أطلق النبى صلى الله عليه و سلم. كان معاوية يبذل جهدا كبيرا فى تشويه سيرة الامام، حتى أنه أعطى «سمرة بن جندب» نائب زياد على البصرة أربعمائة ألف درهم ليروى للناس أن عليا هو المقصود بقوله تعالى: (و من الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا و يشهد الله على ما فى قلبه و هو ألد الخصام (۲۰۴) و اذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها و يهلك الحرث و النسل و الله لا يحب الفساد (۲۰۵))[البقرة، ۲۰۴، ۲۰۵]و أن قائل الامام هو المعنى بقوله تعالى: (و من الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله)[البقرة:۲۰۷]. [صفحه ۸] و بدأ معاوية خطة الاضطهاد فى العراق بقتل حجر بن عدى الكندى، و عمرو بن الحمق الخزاعى، باعبارهما من كبار أصحاب الامام، و قتل معهما ستة من أعوان حجر و دفن أحدهم حيا، و هو عبدالرحمن بن حسان كما يقول المسعودى فى مروج الذهب. و كان هذا العمل مثارا للفزع و القلق و الشائعات و الخرافات و الأساطير فى جو الكوفة، و نسجت أساطير عجيبة حول ميثم التمار، و رشيد الهجرى بغية تصوير الامام بصورة روحية بحتة، و نسبت اليه تنبؤات عن مقتل أصحابه، بل و تؤكد أن الامام لم يمت، و أنه أجز بأشياء بعد ما ظن الناس أنه مات، بينما كان كما روى الذهبى فى تذكرة الحفاظ عن رشيد الهجرى «يتنفس بنفس حى، و يعرق من الدثار الثقيل». بل ان بعضهم قال: ان كان بعد موته «يلمع فى الظلام كما يلمع السيف الصقيل». و نحن لا نذهب بعيدا فى مسألة لعن الامام كما ذهب بعض أهل الغيرة الشديدة اذ قالوا قول الدكتور كامل مصطفى الشيبى فى كتابه «الصلة بين التصوف و التشيع» ان لعن على كان استمرارا لرغبة دفينة فى لعن النبى نفسه باعتباره عدو بنى‌أمية الذى هدم أرستقراطيتهم الجاهلية، و انما نقول: ان معاوية مازال مسلما مخلصا للاسلام، ولكنه لم يكن مؤمنا بمبدأ المساواة بين

المسلمين، بل كان يرى أن أرستقراطية العرب الجاهلية المتمثلة فى بنى‌أمية يجب أن تتحول الى أرستقراطية عربية أموية اسلامية. فكل تاريخه يشير الى حبه للارستقراطية، و آية ذلك كله ما كان عليه حكمه من مباينة للمساواة بين الخليفة و الشعب الا فى صدد السمع و الطاعة حسب. هى رغبة فى الحكم، و شعور بالحق فيه، و هو جامح فى صبغ الخلافة بلون من الأبهة و الارستقراطية، و لا شىء غير ذلك أما الكفر الدفين، و الرغبة فى هدم الاسلام فلا، و ألف لا، و فى حب الرئاسة يكمن الداء، و يكمن اللدد و الخصومة و اراقة الدم، فهذا شىء معروف غير منكور عند أولى الرأى، و فى مراجع التاريخ.

بعد الامام الحسين

خرج الامام الحسين استجابة لنداء ضميره أولا، و استنقاذا للاسلام الذى تتفلت مبادئه و مثله العليا يوما بعد يوم، ثم استجابة لنداء أهل الكوفة الذين دعوه للخروج معه، ولكن التخاذل كان قد بلغ مداه بأهل الكوفة، فلم يستطيعوا أن يقاوموا اعزاء المال المبذول، فقتل الامام الحسين، و قتل معه ولده على الأكبر، و ثلاثة من أبناء الامام الحسن، [صفحه ۹] و خمسة من اخوته، و اثنان من ولد جعفر بن أبى‌طالب، و اثنان من أولاد عقيل بن أبى‌طالب و عدد كبير من أعوانه و قتل داعيته بالكوفة مسلم ابن‌عقيل، و الزعيم الكوفى هانىء بن عروة، و لم يجد من الكوفيين الا شللا و خذلانا كما يقول المسعودى، و كما يؤكد أن كل من حاربه كانوا من أهل الكوفة، و لم يحضره شامى واحد. لم يفلت من آل بيت الحسين سوى ولده على زين‌العابدين الذى كان مريضا و كاد عبيدالله بن زياد يقتله لولا ضعفه، فالحسينيون جميعا من ذريته، و حسن بن الحسن و له ذرية، و أخوه عمر و لا عقب له، و القاسم بن عبدالله بن جعفر، و محمد بن عقيل، كما يقول الذهبى فى سير الأعلام. و انخذل الشيعة مرة أخرى، واضطربت أحوالهم بين المثل الأعلى الذى يتمنونه، و القوى النفسية و البدنية التى تخونهم كلى حزب الأمر، فلجأوا الى الأسطورة يزيدون من محصولها، و يعللون بها نفوسهم، و استغلوا الأحاديث الواردة فى فضل الحسين، وزادوا عليها من الأساطير شيئا كثيرا. فقد أورد الكلينى فى أصول الكافى عن جعفر الصادق أن قوله تعالى: (فنظر نظرة فى النجوم (۸۸) فقال انى سقيم (۸۹))[الصافات:۸۸، ۸۹]ينصرف الى الحسين. فقد رآى ما يحل بالحسين فقال: انى سقيم. كما روى، أنه لما كان من أمر الحسين ما كان ضجت الملائكة الى الله بالبكاء و قالت: هكذا يفعل بالحسين صفيك و ابن‌نبيك؟ قال: فأقام لهم ظل القائم و قال: بهذا أنتقم لهذا. و القائم هو «المهدى» كما هو معلوم فى عرف الشيعة. و هكذا تنمو الأسطورة فى جو الهزيمة و الخذلان كما تنمو فى جو الجهل و الظلام العقلى تماما. ثم كانت حركة التوابين هى الصدى العملى الحزين لقتل الامام الحسين، و كان زعماؤهم خمسة هم: سليمان بن صرد الخزاعى، و المسيب بن نجبة الغزارى، و عبدالله بن سعيد بن نفيل الأزدى، و عبدالله بن وال التميمى، و رفاعة ابن‌شداد البجلى، و لم يكن هؤلاء التوابون يريدون شيئا سوى الانتحار فى ميدان الحرب تكفيرا عن تخاذلهم فى نصرة الحسين، و كانوا يستندون فى حركتهم الى قوله تعالى: (فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم). وانضم اليهم جمع من أهل البصرة و المدائن يرددون: (أقلنا ربنا تفريطنا فقد تبنا). و خرجوا دون قيادة منظمة لمجرد التكفير عن الخطأ ببذل النفس، و لذلك لم يستطع المختار الثقفى أن يضم هؤلاء التوابين [صفحه ۱۰] الى جيشه الذى كان يعده للخروج على الأمويين لأنهم يختلفون معه فى الهدف من الخروج. فى تلك الفترة من التاريخ خرج عبدالله بن الزبير، و أخذ البيعة لنفسه بمكة، و حاضر محمد بن الحنفية الذى يعتبر صديا فى نظر الشيعة، و كان حصاره فى نفس الشعب الذى حوصر فيه بنوهاشم فى أول ظهور الاسلام، و ظهر المختار بن عبيدالله الثقفى ثائرا على بنى‌أمية، و مطالبا بثأر الحسين، و دعا الى امامة محمد بن الحنفية، ولكن محمد بن الحنفية كان قد رأى اندفاع المسلمين وراء الانحراف العقيدى الى القول بتأليه الأئمة و الى أساطير أخرى لها بالغ الخطر على عقيدة الاسلام، فنادى قائلا: «انا لله، ما ورثنا من رسول الله صلى الله عليه و سلم الا ما بين هدين اللوحين» يعنى القرآن. كانت حركة المختار تقترن بخرافات يروجها أنصاره، و يروى ابن‌حزم أنهم كانوا يقولون: ان الملائكة تنزل على صور الحمامات البيض لتنصرهم. كما نسب الى المختار نفسه دعوى النبوة، و القول بالبداء، أى: ان الله كان قد وعده بالنصر، ثم بداله تأجيله الى حين.

و كما شاعت المهديـة مقترنة بحياة محمد بن الحنفية برزت فكرة الرجعة، فلم ير أصـحابه أنه قدمات، و انما أكدوا أنه يتحين الفرصـة للظهور بالسـيف باعتباره مهـديا، و قد أجمع على ذلك الكثيرون من أصـحاب كتب الفرق، و فيها السـيد الحميرى شاعر الكيسانية: لو غـاب عنـا عمر نوح أيقنت منـا النفوس بأنه سـيؤوب و هكـذا انسـحبت الرجعـة و المهديـة على غير ابن‌الحنفيـة حتى شـكلت نوعا من الاضـطراب العقيدى خلط بين عقائد اليهود و المسـيحيين و المسلمين فى صورة لا زال المسلمون الآن يحلمون بها. بعد ثلاثة عشر قرنا من ميلادها، كما تطورت فكرة الرجعـة المقترنة بالمهدية فأصـبحت على أيدى الكيسانية تشـمل على بن أبى‌طالب نفسه، و انتهت الى قـول «المجلس» بـأن الله يحشـر فى زمـن القـائم أو بعـده جماعـة مـن المـؤمنين لتقر أعينهـم برؤيـة أئمتهـم، و جماعـة من الكـافرين و المخالفين للانتقام منهم، و هى أحلام اليقظة تعلل الفاشـلين كما تعلل الأم طفلها الباكى بمجد و عطايا أسطورية. و تلك أقوال لا نجد لها أصـلا فى الاسلام الا عن طريق التأويل الفاسد الذى آمن به [صفحه ۱۱] مجتمع الشيعة من قبل و من بعد، حتى وصل بهم التأويل الى اخفاء الحقائق الشـرعية تحت سـتار التأويل المعروف لديهم بالباطن. و هكذا اضطربت أحوال المسلمين، و غرتهم أفكار دخيلة، و روجت السـرية لأـن يعتنق الكثيرون من العامـة تلـك الأفكـار الدخيلـة، و تطورت تلك الأفكار، فيما بعـد على يـد بيان بن سـمعان، و المغيرة بن سـعيد البجلى، و أبى‌منصـور العجلى، و أبى‌الخطـاب الأسـدى، و غيرهم الى الكفر الصـريح، و أدعـاء حلـول الله تعـالى فى أجساد الدعاة، و دعوى النبوة، كما كانت فكرة تجديد الاسـلام كل مائة عام على يد قائم مشـهود لهذا الغرض من آثار الفكر الشيعى المنحرف الذى لا زال يؤمن به جماعة غير قليلة من غلاة المتصوفة و منحرفيهم. و قد نسبها القائلون بها الى أبى‌هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفيـة حيث قال موجها خطابه الى محمـد بن على ابن عبـدالله بن عباس: «لم تمض مائة سـنة من نبوة قط الا انتهت أمورها، لقوله عزوجل (أو كالـذى مر على قرية و هى خاوية على عروشـها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه)[البقرة:۲۵۹]، فاذا دخلت سـنة مائة فابعث رسـلك و دعائك، فان الله متمم أمرك» و قد انتهز أعداء الاسلام من الاسماعيلية هذه الفكرة فوقتوا انتهاء النبوة نفسـها بمائة سـنة. بل ان الغلاة قد هدموا بهذه الفكرة ختام النبى صـلى الله عليه و سـلم للنبوة و الرسالة، و جهر بذلك أبومنصور العجلى المقتول عام۱۲۱ من الهجرة اذ قـال كمـا روى صاحب فرق الشـيعة: «كان على بن أبى‌طالب نبيا و رسولا، و كـذلك الحسن و الحسـين، و على بن الحسـين، و محمـد بن على» ثم يقول: «و أنـا نبى، و النبوة فى سـتة من ولـدى، و يكونون من بعـدى أنبياء آخرهم القـائم». كـان هناك غلو و اغراق فى حب آل على رضـى الله عنه من جانب الشـيعة و كان هناك غلو و اغراق فى الانتقام ممن يوالى عليا من جانب حكام بنى‌أميـة، و لقـد اسـتبيحت المدينـة المنورة بعـد مقتل الحسـين ثلاثة أيام فى وقعة الحرة: أموالها، و دماء أهلها و أعراضـهم، و اشـتدت كراهيـة الناس ليزيـد، و كثر الخارجون على نظام الحكم، و ضـربت فى مواجهـة ذلك كله الكعبة بالمجانيق، و بدأت حضارة الاسـلام الممثلة فى قوانينة و مثله العليا تتدهور تحت وطأة جبابرة بنى‌أمية، و أصبح الاسلام فى المرتبة الثانية بعد توطيد الحكم الذى اعتبر فى الدرجة الأولى، و فى سبيل توطيد الحكم كان الحجاج يخبر المنهزمين من جيش ابن‌الأشعث بين القتل و البراءة من الاسلام و الايمان، كما كان عمال [صفحه ۱۲] الأمويين يحولون دون اعتناق الفرس للاسلام بجبايتهم الجزية منهم بعد اسلامهم، و لا سـيما أهل خراسان منهم. لقد اسـتذل المسـلمون، و استهين بأقدار الاسلام حتى لقد بعث أحد الخراسانيين كما روى ابن‌سعد الى محمد بن الحنفية يقول: «فما زال بنا الشـين فى حبكم حتى ضربت عليه الأعناق، و أبطلت الشهادات، و شردنا فى البلاد، و أوذينا حتى لقد هممت أن أذهب فى الأرض قفرافأ عبدالله حتى ألقاه». و وبخ عبدالرحمن بن أبى‌نعيم و هو من زهاد البصـرة أهل العراق قائلا: «يا أهل العراق، تسألوننى عن المجرم يقتل الصـيد و قـد قتلتم ابن‌بنت رسول الله صـلى الله عليه و سـلم و قد قال رسول الله فيه و فى أخيه: هى ريحانتاى من الـدنيا»؟ و ترك أبوعثمان النهدى الكوفة و قال: «لا أسـكن بلدا قتل فيه ابن‌بنت رسول الله صـلى الله عليه و سـلم». و نهـج هـذا النهـج خلائق كثيرون من الزهاد و العباد هاموا فى البرارى على غير هـدى. و هكـذا تتمزق وحـدة العالم الاسـلامى، و يحار وسـط هـذا التمزق قوم مؤمنون حكماء، فلا يـدرون من أمرهم رشـدا يهـديهم الى أفضل الوسائل للحفاظ على ايمانهم، و للعمل على اعـادة الوحـدة و الوئام بين أبناء الـدين الواحـد. فما كان هناك الا الغلو فى الحب، و اسـتغلال الحاقـدين على الاسـلام لهـذا الغلو فى

الحب، و العمل على نمائه بعقائد سرية قصاراها القضاء على أصل العقيدة فى الاسلام، و كان هناك مخلصون لم يستطيعوا الجهر برأيهم، فالسيوف مصلتة، و الأحقاد ملتهبة فى صدور الحكام، و لذلك آثروا الانزواء و الانسحاب فى موجة من الزهد السلبى و البكاء على مجد غابر. و كان هناك خارجون على الحكم هنا و هناك، منهم من يستغل ثأر الحسين فى سبيل الحصول على مكاسب دنيوية من الولاية أو الامارة أو مجرد الزعامة الفكرية، و منهم من عمل لنفسه طامعا فى الحكم بحجة انحراف بنى‌أمية عن سنن الاسلام، و منهم من كان عدو للاسلام كله، فما أراد بخروجه الا البلبلة و الاضطراب و القضاء على وحدة الفكر و وحدة القيادة. و كانت المنابر تدوى كل جمعة بلعن صحابى عظيم هو الامام على، و بلعن ذريته الذين هم أبناء الزهراء رضوان الله تعالى عليها، و كان هناك البقية الباقية من بنى‌الزهراء [صفحه ۱۳] تتجه اليهم الأنظار، فلعل الله يحدث على أيديهم أمرا يخرجهم من هذا الذل المضروب على رقابهم، و يخرج الاسلام من محنته القاسية، و لم تكن الأنظار تتجه الا الى الفرع الباقى من شجرة الامام الحسين المباركة «على زين‌العابدين» الامام السجاد، أما أبناء مولانا الحسن الذين أفلتوا من القتل فقد آثروا البعد عن المعركة كلها. و فى هذا الجو الخانق الباكى عاش الامام زين‌العابدين، يحمل تبعة هائلة يحار فى موجها العاتى أعظم الناس جرأة، و أبيهم لسانا، ولكن العناية كلأته فعاش حميدا، و مات حميدا يتوج التاريخ بسيرة من أزكى السير، و منهاج فى الفتن يتخذه المسلم من أشد المناهج دلالته على ألمعية و ايمان عميق. و وعى ذكى يخدم الاسلام من خلال السلم و الأمان و السلوك النموذجى الذى يعتبر أبلغ من كل كلام، و أجدى من كل سيف. العبد الفقير الى الله عبدالقادر أحد عطا [صفحه ۱۴]

على مفترق الطريق

قبل أن نتحدث عن موقف الامام زين‌العابدين من فتنة العصر يحسن أن نعرض لجزء هام من عناصر حياته هو عامل الوراثة الذى يكون ميوله و أحاسيسه و وعيه النفسى و الروحى جميعا. أما أبوه فالامام الحسين بن على رضى الله عنه، و هو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم و فى أخيه الحسن: «هما ريحانتاى من الدنيا». و فى حديث أبى‌سعيد الخدرى: «الحسن و الحسين سيدا شباب أهل الجنة». و روى فيه الترمذى قوله صلى الله عليه و سلم. «حسين منى، و أنا من الحسين، أحب الله من أحب حسينا». و هو الذى كان النبى صلى الله عليه و سلم يحبه فلا يزعجه اذا صعد على ظهره و هو يصلى، بل يصبر حتى ينزل ثم يعتدل من سجوده، ورآه مقبلا و هو على المنبر فنزل فرفعه و أجلسه الى جواره. و جده لأبيه هو الامام على بن أبى‌طالب، أول مسلم من الصبيان، أسلم و سنه عشر سنين فى اليوم الثانى لبعثة النبى صلى الله عليه و سلم، و بعد اسلام خديجة مباشرة، و لم يعبد صنما قط، و كان ربيب النبى عليه الصلاة و السلام، و أقرب الناس اليه، و خليفته على ودائعه، و ختنه و أباعقبه، و صاحب لوائه، و خليفته فى أهله، و أخى النبى صلى الله عليه و سلم بين نفسه و بين على و قال: «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه». أما جدته لأبيه فهى سيدة نساء الجنة فاطمة الزهراء ابنة النبى صلى الله عليه و سلم، و أمها خديجة بنت خويلد شرف نساء العرب و العجم، و شرف العقل الراجح و الأدب الوفير، و الوفاء النادر، و الأمومة الفياضة. و كفى بالزهراء أنها كانت أشبه الناس هيأة و مشية بأبيها، و أن النبى صلى الله عليه و سلم كان يهش للقائها و يقوم، ثم يبسط لها رداءه الشريف، و أنها البقية الصالحة التى كان منها أهل البيت النبوى الرفيع. و أم الامام زين‌العابدين هى الأميرة «شهربانو» ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس، و يروى [صفحه ۱۵] ابن‌سعد فى طبقاته أن اسمها العربى «غزالة»، و يرى النوبختى أن اسمها «سلافة»، و كانت قبل أن تسلم تسمى «جهانشاه». هو اذن من الوجهة الوراثية يرث خلاصة الروح العربية فى أرقى و أسمى مدارجها و سماتها العالية من الأخلاق و الذكاء و الطهارة و العقل و الاحساس المرهف، و الفتوة العربية الاسلامية، و الشهامة و النجدة و الايمان و اليقين. كما يرث خلاصة الاحساس الفارس و شمول الفن الأدبى الرفيع، و سمات السيادة الرزينة و الخيال الجميل. هو اذن خلاصة العمق فى الخيال الأدبى من فارس ممتزجا بالصدق و العمق من بنى‌هاشم، و ملتقى السيادة من بيت النبوة العربى و بيت آل ساسان الفارسى. أى انه كان ملتقى السيادة الروحية و الزمنية جميعا. و ليس بعد ذلك من عز و لا مجد و لا

فخر و لا سيادة و لا شرف فى موازين الرجال. فاذا أضفنا الى تلك العناصر الوراثية أنه عاصر جده الامام و هو رضيع حتى بلغ سنتين من العمر، و أشرف أبوه الامام الحسين على تربيته طفلا و يافعا و شابا حتى جاوز العشرين من العمر، رأينا كيف أنه نشأ على خلائق من بيت النبوة قوامها و التواضع فى السيادة، و العلم، و الكرم، و الأدب الرفيع، و الفهم الصحيح الواعى لمثل الاسلام و أهدافه، فلا يجنح به الخيال، و لا يحد من عزمه اضطهاد، و لا تعريه الدنيا بزهرتها و بريقها، و انما هو بحكم الوراثة و المنبت انسان يرى الحق من حيث لا يراه أهل الهوى، و يدرك المسئولية من حيث يدرك غيره نفس المسئولية ولكن نحو نفسه التى لصقت بالأرض فلا ترى مجد الا على ثراها، و لا مثل أعلى الا ما كان منها من نال و جاه. هو رجل ينظر الى السماء يحقق فيها مجده؛ بينما غيره ينظر الى الأرض يحقق فيها جاهه، فتحقق مجد السجاد فى الأرض و فى السماء، و فشل غيره فى تحقيق مجد الأرض و لم يظفر بشىء من السماء. شهد بعينيه و هو مريض تساقط اخوته و نبى عمومته بسيوف البغى على أرض كربلاء، ثم شهد سقوط أبيه سيدالشهداء فى معركة الفداء بعد جولة بطولية نادرة، و من قبل كان قد سمع باغتيال جده الامام و هو يعمل جاهدا لتصحيح خطوات المسلمين على الطريق، و حمل أسيرا مع الأسرى من نساء بيت النبوة و من بقى من فتيانه السادة المغاوير، و شهد الخلاف بين ابن‌زياد و من حوله على قتله، و أخيرا لم ينس قط أنه كان [صفحه ۱۶] مطمعا من مطامع هواة المال فى أسره، اذ أخفاه رجل عن القائد الأموى كما يقول ابن‌سعد، ثم سلمه الى ابن‌زياد نظير ثلاثمائة درهم، و كان هذا الرجل مع ذلك يبكى. و علام يبكى الرجل؟ و لماذا أخفاه ليسلمه بنفسه، و كيف يتفق البكاء على تلك الفعلة الشنعاء مع الرغبة فى العطاء المدخول؟ انه الفكر المزدوج الذى أصيب به المسلمون فى عصر بنى‌أمية، الفكر الذى يؤمن بمبدأ و بنقيضه فى الوقت نفسه، و تلك بلية البلايا فى موازين السياسة و الاجتماع على السواء. فهم يحبون آل البيت، و يعرفون أقدارهم و منازلهم من رسول الله صلى الله عليه و سلم، و يدركون مدى ما ينصب عليهم من غضب الله لايذائهم و الاساءة اليهم، هم يعرفون ذلك و يكنونه فى صدورهم، و هم فى الوقت نفسه واقعون تحت سلطان النبوى، مستجيبون لنزوات النفس، راغبون فى المال لتحقيق أطماعها، و اسكات زئير الشهوات فى أعماقها، فهم لذلك يعملون بكلا الوجهين، البكاء على مصير آل البيت النبوى، و على الضحية التى قبض عليها هذا الرجل - و أمثاله كثيرون من أعز بيت النبوة رجلا - و على نفسه التى لا ترحمه و لا تعفيه من تبعاتها حتى يأتى هذا الجرم المنكر الشنيع. لقد قال الناس قبل ذلك لجده: «قلوبنا معك، و سيوفنا عليك». و هذا أصدق تصوير للفكر المزدوج الذى تسلط على الناس فى عصر بنى‌أمية فهدد تفكيرهم، وهدد حضارتهم، وهدد تاريخهم كله على مدى العصور. و هكذا امتد تأثير الفكر المزدوج حتى شمل أولى الأمر و هم يستبيحون المدينة ثلاثة أيام، مالا و عرضا و دما فى وقعة الحرة، بما لم يحدث له نظير الا بين أنباء الغاب، و شمل أهل الفكر فى ذلك العصر و فيما بعده فقالوا: لا ضير على الدولة من قتل الحسين و أهل‌بيته، فالفتوح الاسلامية قد امتدت شرقا و غربا، و قد أعز بنوأمية الاسلام و لم يذلوا رقاب المسلمين. تلك أفكار شاعت فى العصر، ورددها رجال من عصرنا الحاضر، و قبل أن نفحص سلوك الامام زين‌العابدين ازاءها نرى أن نقيم هذه الفكرة حتى ندرك جوانب العظمة الفكرية البريئة من الازدواج لدى الامام السجاد. و تتلخص قضية الحق فى تاريخ بنى‌أمية فى: الارستقراطية القرشية المنهارة، و الرغبة الجامحة فى احيائها تحت ظلال الاسلام، و وسائل الاعلام المجندة فى هذا السبيل. [صفحه ۱۷] أما ارستقراطية بنى‌أمية فقد انهارت بالفعل حينما أسلم زعيمها أبوسفيان والد معاوية، و أصبح فردا عاملا فى نطاق الاسلام العام الذى يقيس أقدار الناس بمقاييس تختلف عن تلك المقاييس الجاهلية التى كمنت الى حين فى أعماق أبى‌سفيان و أهل‌بيته، و أصبحت السيادة بمعناها الاسلامى الأصيل الذى ينآى عن حب السيطرة على الغير، و عن حشد الجموع فى سبيل الجاه الأرض الفارغ، بل انما العزة ممنوحة من الله، و لا قوام لها الا الايمان و انكار الذات، و هو ما لم يتدرب عليه الأمويون، أو كان عسيرا على نفوسهم آنذاك فلا تلين له الا بعد أجيال من التدريب. فما ان حانت الفرصة بولاية عثمان حتى أطلت الأطماع من مكامنها، و لم يكن ممكنا أبدا أن يتخلى الاسلام عن مكانه لتحل محله الجاهلية الأولى التى يسهل على هواة الجاه أن يصعدوا على أشلائها، فليكن الاسلام، وليكن الجاه تحت سلطانه، ولتكن الأرستقراطية على أساس من عقيدة الاسلام التى ثبتت تجربتها فى تأسيس أمجاد ضخمة لآل بيت

النبى صلى الله عليه و سلم و للمتفوقين فيها من غيرهم، و التى قبلتها القلوب و العقول فلم يعد من الممكن التخلى عنها أو القضاء عليها. و حينما تصطدم أرستقراطية بنى‌أمية بانسان متفوق، أو بمبدأ من مبادىء الاسلام، فمن الهين على وسائل الاعلام تشويه ذلك الانسان، و تأويل ذلك المبدأ بما يخدم المصلحة الأموية أولا و أخيرا، و جماع الأسانيد التى تدعم ذلك المجد المصنوع هو السيف أولا و أخيرا. وليكن هنالك فتوح باسم الاسلام، فذلك شىء يخدم أمجاد الأمويين و يخدم الاسلام نفسه، فلا ضير عليهم من اتساع الفتوح، لأنها مجالات للطامحين و هواة المجد من العرب جميعا. فلئن كان الاسلام يحتم انكار الذات، و يوجه كل الطاقات نحو خدمة المبدأ و العقيدة و المثل الأعلى، و اعتبار القدوة الحسنة من أخلاق الاسلام عاملا من عوامل الفتح و اقناع الأمم المغلوبة بالعدل الاسلامى المبسوط على الجميع دون تفرقة بين عربى و لا عجمى، و لا عظيم و لا صعلوك، فان الدولة الأموية اعتبرت الاسلام وسيلة من وسائل خدمة الذات فى مجال المجد و المال، و بعثت عصبية القبيلة من جدثها، و أحيت العنصرية من رقادها، حتى لقد أخذوا الجزية من مسلمى الفرس و لا سيما خراسان، و لم تتورع سيوفهم عن الاطاحة بأغلى الرقاب و أعزها على كل قلب مؤمن، و لم تتورع وسائل اعلامهم عن تشويه أعظم [صفحه ۱۸] الشخصيات بلاء فى بناء الاسلام من صحابة النبى صلى الله عليه و سلم. اسلام فى ناحية، و قتل لرجاله المخلصين، و سيوف تجتاح رقاب آل بيت النبى، و نشويه لمثله العليا من جهة أخرى. فتوحات باسم الاسلام من جهة، و قدوة سيئة تنفر المغلوبين من الاسلام من جهة ثانية، و عشرات من رجال القدوة الحسنة المنكرين لذواتهم، و المنادين بالمبادىء السامية، و الكاشفين عن وجه الاسلام الرحيم العادل يلقون حتفهم على يد سفاح بنى‌أمية الحجاج بن يوسف، معلم الصبيان الذى لمع نجمه على البغى و الطغيان و التنكر للقيم الانسانية فى أبسط مظاهرها، و الذى تفوح من نسبه و خلائق أمه ريح الغدر و التنكر للشرف. فهل يمكن القول بأن بنى‌أمية خدموا الاسلام؟ و بأنهم لم يذلوه باذلال المخلصين من رجاله و من سلالة نبى الله لأنهم سيروا الجيوش شرقا و غربا باسم الاسلام؟ لا يقول بهذا القول الا مريض بازدواج الفكر هو الآخر، بحيث يفصل بين الاسلام من حيث هو عقيدة، و بين الاسلام من حيث مثل أعلى واجب التطبيق، و ما ازدواج الفكر الا- مرض عقلى فى عرف الطب، لا معتمد على رأى المصاب به بأى حال. أما أصحاب الطريق السوى فى التفكير فانهم يؤكدون أن بنى‌أمية جنوا على الاسلام، و أذلوا المسلمين، و أذلوا عظماء الرجال، و أذلوا آل بيت النبى صلى الله عليه و سلم ليفسحوا لأنفسهم طريقا الى الارستقراطية القديمة التى بعثت على صورة أخرى غير الصورة الجاهلية الأولى فى الشكل العام، و ان كانت تتسم ببعض السمات الجاهلية فى غير العقيدة كالتعصب القبلى، و اثارة المسلمين بعضهم على بعض، و الباس الباطل صورة الحق و الاستمساك به، الى آخر تلك الخلائق الأموية المعروفة للجميع فى التاريخ. شهد زين‌العابدين هذه المأساة هو بفصولها كلها، و رأى من حوله أقواما يحبون آل بيت النبى صلى الله عليه و سلم، و يتشيعون لهم عصبية بلغت ذروتها عاطفيا حتى جمحت بهم الى الباطل الصريح، و كان قد اندس بين الشيعة أقوام حاقدون على الاسلام دسوا لهم بعض التأويلات الفاسدة التى تصنع آل البيت فى غير مواضعهم من البشر، و انساق الشيعة وراء تلك التأويلات، ففسدت عقائدهم، و أساءوا الى أهل‌البيت من حيث يحسبون أنهم يحسنون الصنيع. [صفحه ۱۹] لقد انحرف الأمويون المعادون لآل البيت و لغيرهم من ينقد سياستهم، و انحرف المحبون لآل البيت كذلك، فماذا كان موقف الامام زين‌العابدين؟ كان موقفه نابعا من الاسلام نفسه، بحيث كانت حياته هى حياة الاسلام الذى دعا اليه جده الأعلى صلوات الله عليه و سلامه وسط تلك الفتنة العمياء التى كادت تقضى عليه قضاء مبرما. كان مسالما للأمويين، فلم تعد نجد الثورة بالسيف على الطغيان السائد، من حيث تجدى الثورة التى يتضمنها احياء المثل الأخلاقى الأعلى للاسلام، و افساح الطريق لهذا المثل الأعلى باصطناع المسالمة للحاكم المتعطش للدم، و بذلك استطاع الامام أن يتقى شرور الأمويين، بل و يكتسب حبهم، و فى الوقت نفسه يجعل من أخلاقه مثلا عمليا مشهودا يلتف حوله أنصار الاسلام الخالص من كل دخيل و يقمع باطل بنى‌أمية بلسان الحال. و قد شهد الامام الزهرى بنجاح الامام زين‌العابدين فى هذا المضمار فقال فيما رواه الذهبى: «كان من أفضل أهل بيته، و أحسنهم طاعة، و أحبهم الى عبدالملك بن مروان». و فى الوقت نفسه أعلن ضلال الشيعة و انحلال تفكيرهم الممثل فى تلك الصور الخيالية الأسطورية التى أضفوها على أئمة آل البيت، فقال لمن أثنى عليه من أهل العراق:

«ما أكذبكم و ما أجرأكم على الله، نحن من صالحى قومنا، و بحسبنا أن نكون من صالحى قومنا». و ما له لا يعلن ضلال محبيه و هو الامام المنكر لذاته فى سبيل دين الله؟ و مع أنه كان يستمع الى سب جده الامام على، و سب ذريته على المنابر و هو منهم، فلم يشأ أن يقاوم الجريمة مثلها - و هو الذى لم يصب بازدواج الفكر - فلم يشجع السبابة و بخاصة الكيسانية فى سبهم لآل أمية، لأن المسألة عنده ليست مسألة أشخاص، و انما هى أساسا قضية الاسلام الذى ينفر من السباب، و يدعو الى الوئام، و لئن كان الأمويون دعاة شتم و سباب، فلم يشأ الامام أن يجاريهم فى باطلهم، بل آثر الاعتصام بالحق، و قال للشتامين من الشيعة: «أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عزوجل فيهم: (و الذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفرلنا و لاخواننا الذين سبقونا بالايمان و لا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم (۱۰))[الحشر:۱۰]. [صفحه ۲۰] و لم ينس الامام أن يواجه الغلاة الذين وضعوا الأئمة فى درجة من الألوهية بألامه و غضبه الشديد من مسلكهم هذا، فكان يقول لهم: «أيها الناس، أحبونا حب الاسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا». هو رجل الاسلام المنكر لذاته من أجله، و لذلك التفت حوله القلوب، و اجتمع حوله المسلمون باعتباره المثل الأعلى للقدوة الاسلامية الحسنة التى يجب أن تحتذى، و تمنى الجميع لو أن على بن الحسين أصبح امام المسلمين و أميرالمؤمنين، اذن لعاد المجد الأول للاسلام، و امحى ما جد فيه من بدع و أهواء. كانت صلات الامام مع العلماء المخلصين وطيدة، و لم يكن يرى لنفسه فضلا على علماء العصر، بل انه كان يسعى الى سعيد ابن‌جبير الذى قتله الحجاج عام أربع و تسعين من الهجرة و يتتلمذ له، و كان يعتبر الغلو مهانة لآل البيت كما روينا عنه من قبل، و كما كان يردد دائما: «ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء» و يشير الى العراق. و دان بالصفح الجميل عن كل من أساء اليه، حتى لقد جاءه رجل فقال له: ان فلانا قد ذمك و وقع فيك. قال: فانطلق بنا اليه، فلما رآه قال له: يا هذا، ان كان ما قلته حقا فغفرالله لى، و ان كان ما قلت فى باطلا فغفرالله لك». تلك هى أهمية الامام السجاد فى التاريخ، و هى أهمية نابعة من تمثل شخصية الاسلام الحق فى شخصه، و من أنه لم ينفعل بما يسمع من لعن جده و أبيه و لعنه هو فى كل صلاة جمعة، و على كل منبر، كما لم ينفعل بما أضفاه الشيعة على آل على و هو منهم من أساطير تحلو فى أعين طلاب المجد و فى قلوبهم، فلم يذهب به حق على عدو، و لم يأسره غلو من صديق، بل كان هو الاسلام الحق مجسما فى خلائق انسان، و قل على وجه الأرض من يقف هذا الموقف العجيب الذى ينم عن تحكم شديد فى العاطفة و سيادة عليها، و اضراب عن الاستجابة لها الا فيم يخدم الاسلام و كفى. فزين العابدين هو المبدأ الحق فى انسان، و ليس هو انسانا بكل عواطف البشر فى مبدأ. ولكن باحثى العصر الحديث يحلولهم دائما أن ينساقوا وراء المستشرقين فى الحكم على رجال الاسلام البارزين من أمثال الامام السجاد، و فى تقييم شخصياتهم و أعمالهم على صورة تخفى تفوقهم و تساميهم عن باطل العرف، و فاسد الموازين، و تعلل هذا التسامى و تلك العظمة بعلل سياسية خارجة عن نطاق شخصية الرجل العظيم. [صفحه ۲۱] قالوا: ان السبب فى التفاف المؤمنين حول الامام زين‌العابدين هو أن أمه كانت أميرة فارسية، و من ثم كان يحق فى نظر الفرس حمل التاج الساسانى، و يحكم العرب و العجم. و قد أيد المرحوم الأستاذ أحمد أمين هذه الفكرة فقال فى فجر الاسلام: «ان من عقائد الفرس الدينية التى كان لها أثر فى بعض المسلمين أنهم كانوا ينظرون الى ملوكهم كأنهم كائنات الهية اصطفاهم الله للحكم، و خصهم بالسيادة، و أيدهم بروح منه، فهم ظل الله فى أرضه... فنظرة الشيعة الى على و أبنائه هى نظرة آبائهم الأولين». و قد نقل الأستاذ الدكتور مصطفى الشيبى هذه الآراء عن الكتاب المعاصرين و قال: انها زبدة رأى «جوبينو» فى كتابه «الدين و الفلسفة فى آسيا الوسطى». كما نقل عن الدكتور حسن ابراهيم حسن انسياقه وراء تلك الفكرة فى كتاب تاريخ الأدب الايرانى، ثم دحض الدكتور الشيبى تلك المزاعم مؤكدا تشابه الأمر على الباحثين، فقد ثبت أن الموالى فى عصر زين‌العابدين لم يرفعوا صوتا بتلك الدعوة، كما أن نظرية النور التى شاعت فى ذلك العصر و التى يمكن أن تكون مستند اللقائين بهذا الرأى قد ظهر أثرها متأخرا جدا عن حياة زين‌العابدين. و الدكتور الشيبى مشكور لأنه لم يغتر بقول المستشرقين، و لا بأقوال من حذا حذوهم. و نزيد عليه فنقول: ان التفاف الناس حول زين‌العابدين كان نابعا من رغبة أكيدة لدى الناس بوجه عام فى رتق الفتق الكبير الذى حدث فى الاسلام، و لم يكن مؤهلا بهذا الأمل على الاطلاق غير زين‌العابدين، و لم يكن أنصاره مؤهلين أيضا لحمل السيف. كانت المشكلة

تتطلب رجلا هادئا متزنا، يدرك مصلحة الاسلام أولا و أخيرا، و يضحى بصالح نفسه فى سبيلها، و ينكر ذاته من أجلها، و لا يفرط فى مبدأ خلقى اسلامى حتى ولو كان فى ذلك التفريط رئاسته و سلطانه، و كان عامل الوراثة هنا يؤهل زين‌العابدين لأن يكون هذا الرجل، فجده الامام على رفض مبدأ الرشوة ليحقق لنفسه نصرا أكيدا على جيش معاوية، و يوطد الملك و الخلافة لنفسه، اذ لم يكن الأمر يتطلب منه سوى دنانير يوزعها على الجيش فى مواجهة الدنانير التى أنهالت على جيش معاوية و برفت فى قلوب جند الامام، ولكن الامام كان يرى أن المشكلة ليست، مشكلة على بن أبى‌طالب، و انما هى مشكلة سيادة الاسلام، و ليست مشكلة جيش يرضى و يسخط، بل هى أزمة الايمان الذى يدفع الى الجهاد فى سبيل الله بالمال و النفس لوجه الله. [صفحه ۲۲] لم يكن الامام يجهل هذا، بل لقد سار فى سياسته عن وعى سار على نهجه حفيده زين‌العابدين من بعده، و بينه و بين جده فدائية أبيه الانتحارية النادرة فى سبيل الحق و هى من نفس الطراز الصادق و المنكر للذات. لهذا التشابه وحده التف المسلمون حول الامام زين‌العابدين، و أعجبوا بابن بنت النبى الذى وضع نفسه موضع التلميذ لأحد الموالى و هو سعيد بن جبير الذى قتله الحجاج، و كان تلقيه عن سعيد بن جبير فى الواقع ضربة فى صميم الشرف الأموى الذى احتقر رجاله الموالى، و احتقر المسلمين من غير العرب، كما كان ضربة قاصمة للشيعة الذين كانوا ينسبون الى الأئمة من آل البيت أطلاعهم على العلم السرى، و على مناهج تطبيق الآفاق على الأنفس، و تقدير التنزيل على التأويل، و تصوير الظاهر على الباطن التى أثروها عن أبى‌هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية. لم يشأ زين‌العابدين أن تكون القاعدة التى يدعو فيها الى المثل الأعلى المتمثل فى القدوة الحسنة و التى تعمل على احياء ما هجر من مبادىء الاسلام ضيقة ضيق قاعدة الشيعة وحدها، أو قاعدة العلماء وحدهم، بل شملت قاعدة قدوته الحسنة العلماء و الشيعة و العامة و حكام بنى‌أمية أنفسهم، و أصبح بهذه السياسة الحكيمة أمل الملايين، و ملتقى أبصارهم. لم يكن هناك غيرة يمكن أن يلتف حوله المسلمون بقلوبهم، و لم يكن هناك غيره يستطيع أن يصل بصوته الى أسماع المسلمين، فهو رابع الأئمة عند الشيعة مسبوقا بالامام على، و الامام الحسين، ثم محمد بن الحنفية، ثم الامام السجاد الرابع. و كان الغو قد بدأ منذ عهد الامام على، ولكنه لم يتخذ فى عهده طريقا مستقرا، لأنه كان يقمع كل من يخرجه عن دائرة الانسان أما الأمويون فقد غلا جيشهم غلوا فاحشا فى تصوير الجمل الذى كان يحمل أم‌المؤمنين عائشة رضى الله عنها بصورة روحانية هو الآخر، و ذلك حين أخذ رجال من الأزد الذين كانوا يحيطون بالجمل بعر الجمل و يفتونه و يشمونه و يقولون: «بعر جمل أمام ريحه ريح المسك» كما يقول الطبرى، فلم يكن غريبا أن يبادلهم الشيعة غلوا بغلو ولكن فى أئمة آل البيت لا فى الجمال و غيرها مما مسه آل بيت النبوة. و لم يكن الامام الثالث محمد بن الحنفية بمستطيع أن ينفذ بصوته الى الناس – و كان [صفحه ۲۳] يكره الغلو – لأن ابن‌الزبير كان قد حاصره فى الشعب، و كان عبدالملك بن مروان يحول بينه و بين الاتصال بأنصار أبيه، فما زال ينتقل من بلد الى بلد حتى مات بالمدينة، و خلفه ابنه أبوهاشم عبدالله، الذى يصفه الأصفهانى فى مقاتل الطالبين بأنه كان «لسنا خصما عالما و كان وحى أبيه». ولكن ما أثر من تاريخه يقول: انه أحيا فكرة التنبؤ بالمغيبات، و ذلك ظاهر مما رواه الأصفهانى من أنه أخبر السفاح بأنه سيموت عند وصول وافدين أحدهما من السند و الآخر من الهند، كما أنه كما يقول اليعقوبى قال بسرية الأعداد و أهميتها، و قال بفكرة تجديد الدين كل مائة عام كما أسلفنا من قبل، و لذلك لم يكن صالحا لحل المشكلة فى قلوب الغالين، لأنه قد فتح بابا من السرية فى العلم، و هذا الباب مرتع خصيب للغلو و الغلاة، كما أنه حصر الامامة فى كل من يعلم العلم السرى وحده، و ينقل الشهرستانى عن أصحاب أبى‌هاشم عنه قوله: «ان لكل ظاهر باطنا، و لكل شخص روحا، و لكل تنزيل تأويلا، و لكل مثال فى العالم حقيقة، و المنتشر فى الآفاق من الحكم و الأسرار مجتمع فى الشخص الانسانى، و هو العلم الذى استأثر بن على عليه‌السلام، ثم ابنه محمد بن الحنفية، و هو أفضى بذلك السر الى أبى‌هاشم، و كل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الامام حقا». فلئن كان هذا القول ظل من الحقيقة عند التأمل العميق فليس العصر عصر العمق الفكرى، و الفلسفة الانسانية، بل هو عصر يتطلب من المصلح العودة الى البساطة، و اغلاق باب التعمق اغلاقا تاما، فما مصيبة العصر آنذاك الا التعمق و الاغلاء، و ليس يجوز أن نعالج المشكلة بنفس المشكلة. من هذا العرض يتبين لنا عبقرية زين‌العابدين و وعيه الدقيق فى مواجهة المشكلة و فهمها، و ادراك أبعادها،

و صحة منهجه الزهدى البعيد عن الخوض فى مشكلة الامام و شروط الامام، و كان منهجه الزهدى المتسامح عاملا من عوامل نجاحه فى طريقه، اذ التف حوله الزهاد و العلماء و العامة، و الشيعة فى تحفظ من الخوض فى مسائل الفلسفة التى كان يمقتها، و هذا هو السرفى أن عبدالملك بن مروان كان يحبه و يقدره قدره. [صفحه ۲۴]

رأس أهل الملامة

من العسير أن ندرك حقيقة العمل، أو حقيقة الهدف من العمل عند أهل الملامة الخلص أهل القدم السابق، و السلوك السوى، و الاخلاص العميق، و الايمان الخالص من الشائبة. أما أهل الملامة المتأخرون فانهم وقعوا فى المنكر و هم يحاولون تخليص أعمالهم من الرياء كما يوحى به قول حمدون القصار، ذلك الملامتى البارز حين يقول: «اذا رأيت سكران فتمايل، لئلا تبتلى بمثل ما ابتلى به». فقد أهمل حمدون شعيرة النهى عن المنكر، و أوهم الناس بسكره، و ربما لم يفطن أحد العامة الى هذفه فعاقر الخمر اعتمادا على مظهر حمدون الذى كان يعد فى كبار الصوفية الواصلين. و لذلك كان من السهل كشف حقيقة العمل و هدفه عند أهل الملامة المتأخرين، و لا سيما أولئك الذين اتخذوا أستارا رقيقة تفضح ما وراءها من دعوى الملامة عند المدعين لها فى العصر الحديث. و الملامة عبارة عن العناية باخلاص العمل لله وحده دون العناية بالظاهر، و محاولة ستر هذا الاخلاص لله، أو ستر الأعمال العبادية نفسها بما يصرف أنظار الناس عنها. و قديما كان أهل المواجيد الصادقة يسترون مواجيدهم بالفقه و الحديث أو غيرها من الحرف و الصناعات، أما ستر الأعمال بتقليد السكارى فانه صار من بعد ذريعة الى السكر نفسه، ثم دعوى الولاية من خلاله، أو من خلال غيره من الأعمال المكروهة أو المحرمة على ما سنفصله فى نهاية هذا الفصل. و اذا كنا نعتبر الامام زين‌العابدين رأس أهل الملامة فانما كان ذلك قبل أن تكون الملامة مذهبا مستقر الأصول و القواعد، فهو على هذا لا يعدو أن يكون معنيا باخفاء العمل من جهة، و اخفاء هدفه من جهة أخرى، متخذا من الظروف التى أحاطت به وسيلة لهذا الخفاء دون اصطناع وسائل أخرى من خارج الذات البشرية، و على هذا كان يجب أن يسير الملامتية عبر العصور، ليجنبوا أنفسهم الوقوع فى المحظور كما حدث بالفعل. أما الوسيلة التى تذرع بها السجاد لاخفاء أعماله القلبية و أهدافها فكانت «البكاء». و كانت ظروفه الانسانية التى يقرها العرف تحتم عليه ادامة البكاء، ولكن الأمر الذى لا يمكن، أن نوافق عليه هو أن يكون الامام السجاد أحد البكائين حسب، و لا موهبة له فى [صفحه ۲۵] الدين الا بالبكاء، لأن سيرته تفصح لنا عن كثير من المواهب الروحية النادرة التى سنعرض لها خلال هذا الفصل ان شاء الله. لقد تحقق لوم الناس له على البكاء باعتباره كان أمرا لازما له، لا يفارقه الا قليلا، و كان رد الامام على لائميه يؤكد لهم أن بكاءه ما كان الا لظروف نفسية معينة أحاطت بحياته، و ليس هو بكاء الخوف و اليقين الروحى الذى يصدر عادة من المتفوقين فى مواهب الروح، قال كما يروى أبونعيم: «لا- تلومونى، فان يعقوب فقد سبطا من ولده فبكى حتى ابيضت عيناه و لم يعلم أنه مات، و قد نظرت الى أربعة عشر رجلا- من أهل‌بيتى يقتلون فى غزاة واحدة، أفترون حزنهم يذهب من قلبى؟». و فى رواية أوردها صاحب روضات الجنات نقلناها عن كتاب «الصلة بين التصوف و التشيع، أن الحسن البصرى لقى الامام السجاد ملثما يبكى و يتضرع فى الكعبة، فقال له: يا سلالة النبوة، ما هذه المناجاة و البكاء و أنت فى أهل البيت، و قد قال الله عزوجل: ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا. قال: دع يابن أبى‌الحسن. خلقت الجنة لمن أطاعه ولو كان عبدا حبشيا، و خلقت النار لمن عصاه ولو كان شريفا قرشيا، و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أيتونى بأعمالكم لا- بأنسابكم». فهو كما نرى ينفى الامتياز عن نفسه نفيا قاطعا مؤيدا بالدليل، و يضع نفسه فى موضع عامة الناس المطالبين بالعمل و العبادة و الطاعة، ولكنه يكتفى بهذا القدر من أصول الملامتية أمام الحسن البصرى الزاهد العالم العارف بما يكنه ابن‌الحسن من مواهب الروح، فلم يكن رده عليه مساويا لرده على عامة الناس بأنه انما يبكى على القتلى من أهله و عشيرته، ولكنها الملامتية الصحيحة فى كلا- الوجهين، دون نزاع، تختلف وجوهها و تتعدد طوائفها دون أن تجنح عن الواقع الى أساليب مصنوعة تثير الغش و الخداع بين طوائف المؤمنين. و لم ينس زين‌العابدين أن يطلق قولا حكيما جرى فيما بعد مجرى الأمثال

يعلل به بكاءه، و ينفى عن نفسه أن يكون سببه احساسا روحيا متفوقا فيقول: «فقد الأحبة غربة». و هو قول حق، و سبب وجيه يدعو المصاب به للبكاء ليله و نهاره، و قد يكون هذا السبب عاملا من العوامل التى أذكت جذوة البكاء فى قلب الامام السجاد، ولكنه ليس كل شىء فى مواهبه التى تناقلتها الروايات بصورة جعلتها ذات دلالة على التفوق [صفحه ۲۶] و الامتياز فى مواهب الروح حتى ولو كان طابع الأسطورة يظلل بعضها بظلاله المعبرة التى تفصح عن أعاجيب أحواله فى هذا الميدان. كان مرهف الحس و المشاعر ما فى ذلك من شك، و تأثر تأثرا عميق بليغا بمصارع أهل‌بيته و على رأسهم أبوه العظيم لا يرتاب فى ذلك أحد، و لابد من أن تنتزع تلك الفاجعة الشنعاء دموع عينيه و أحزان قلبه و فيض عواطفه و آلامه، ولكن الذى لا يعقله انسان أن يكون بكاء الامام السجاد مدى حياته مدفوعا بهذا السبب وحده، و هو ربيب الحسين، و رضيع لبان النبوة الطاهرة، و المتشرب لخلاصة الايمان الصابر الراجع بالخلق كله الى الله، بل ان العامة أنفسهم لا يكونون على حال البكاء مدى الدهر لفقد الأحبة و الأهل و العشيرة أبدا، فليس من السائغ مطلقا أن ننسب الى السجاد ما لا يتحقق عند عامة الناس، فقد كان بكاؤه موجها نحو ما هو أسمى و أدل على التفوق من هذا السبب الظاهر. لقد استغل هذا السبب الظاهر ليغطى به السبب الحقيقى لبكائه، و ليعلم الناس من بعده وجوب اخفاء العمل لله بأسباب من طبيعة حياة العابد لا بأسباب مصنوعة تنم فى كثير من الأحوال عن رياء من حيث يظن العابد أن يتجنب الرياء. و فى نفس هذا السلوك يكمن التفوق و البروز فى مواهب الروح، و سبحاتها نحو الغيب الأقدس. لقد أعلن الامام فيما روينا من أقواله قبلا أنه لا يمتاز عن غيره من سائر الناس، و ليس فيه و لا فى غيره من أئمة آل البيت ما يرميهم به أهل العراق من خروج عن مراتب الانسان، ولكنه كان يبطن فورانا هائلا من مواهب الروح كتمه عن الناس، و علل مظاهره من البكاء و العجيب بما روينا عنه من تعليلات، ولكن شدة احساسه بالغيب، و يقينه بغير المنظور و كأنه مشهود منظور كان يأبى الا أن يكشف عن دخيلة نفس الامام، و حقيقة ما يتبلح فى صدره من مواهب الروح، و أسباب البكاء الحقيقية، و لم يكن ظهور تلك الدلائل التى تشير الى التفوق مقصورا للامام، فهناك اجماع على خلائق من خلائقه كان يحكم كتمانها احكاما عجيبا بحيث لم تظهر حقيقة أخلاقه سبوية الا بعد موته، و كان ذلك منه امعانا فى احكام أخلاق أهل الملامة، و احكام طرائقها. فمن غرائب ذلك أنه كان مشهورا بالبخل، لأنه لم يكن يتصدق مطلقا أمام الناس و لا فى مواجهة السائل، و كان سعيدا باشتهاره بالبخل و لوم اللائمين عليه، ولكنه لما مات انقطع عن مائة أهل‌بيت بالمدينة ما كانوا يجدونه ملقى فى دهاليز بيوتهم من عطاء [صفحه ۲۷] جزيل، فكان فى ذلك دلالة على أنه كان كما تروى المراجع يذهب مستخفيا فى جنح الظلام، و يحمل على ظهره جرب الطعام،؟؟ فى دهاليز من كانوا يقصدونه و يمنعهم عطاءه، و يروى أبونعيم عن جرير أن الامام حين مات وجدوا بظهره آثارا مما كان يحمل بالليل الجرب الى المساكين». كما يروى القرمانى فى أخبار الدول، و الذهبى فى التذكرة أنه كان يتصدق سرا و يقول: «صدقة السر تطفىء غضب الرب». لقد نجح الامام فى كتمان كرمه النبوى الذى ورثه عن جده الأعلى صلوات الله عليه، و صبر على شهرته بالبخل فى سبيل نجاح العمل السرى الواجب شرعا، ولكن الله أبى الا أن يدع العلامة الواضحة التى تدل على كرمه بعد موته، و التى تعتبر من صنيع الامام فى حياته مثلا أعلى للعمل الاسلامى الذى يحفظ كرامة المؤمن و ماء وجهه، و يؤكد حكمة السرية فى الصدقة لهذا السبب و لغيره من الأسباب الاجتماعية الأخرى. هذا أمر يمكن كتمانه حقا على تفوق و عبقرية نادرة، و قوة خارقة على الصبر فى مواجهة الاتهام بالبخل، فهل يعجز هذا الصبر الهائل عن التسلى عن فقد الأهل و العشيرة و هو أمر أهون من رميه بخلق ممقوت كالبخل، بل ان فقد الأهل يزيده شرفا و عزا على مدى العصور، و سموا فوق هامة التاريخ؟ ولكن مواهب الروح لابد أن تتفجر أحيانا فتكشف عن دخيلة الامام و حقيقة مكانه بين أهل الايمان النبوى الموروث و أصحاب الحاسة الوحية البارعة الصادقة، و غير ذلك من المواهب و مواريث العمل الايمانى الذى كان يخفيه بالبكاء، و يتستر به من مظنة الادلال بالعمل، أو الاشتهار به، أو رياء الخلق فيه. و كان انكشاف تلك الحقيقة يتخذ أهدافا مختلفة كلها تخدم قضية الايمان الصادق، و تدعم الأساس الهام فى العمل الاسلامى و هو توجيه الارادة بالعمل نحو الله وحده لا شريك له، لا لهدف آخر سواه. فهو يقول فى رواية أبى‌نعيم مبتهلا الى الله فى لحظة من لحظات اتهام النفس بالتقصير رغم بلوغها الغاية فى الاجادة: «اللهم انى أعوذبك

أن تحسن فى لوائح العيون علانيتى، و تقبح فى خفيات العيون سريرتى، اللهم كما أسأت و أحسنت الى، فاذا عدت فعد على». فهو يخشى أن تكون علانيته أبلغ من سريرته فى الاحساس بالاخلاص، و فى اخلاص الارادة لله وحده، و فى البأس من الخلق كلهم و الثقة بالله وحده، يخشى ذلك رغم جهوده التى كان يبذلها فى الاسرار بأعماله، و احكام السنار حولها أن ينفذ منها شىء يعلمه [صفحه ۲۸] عنه الناس، و هو فى الوقت نفسه يلقن أهل الملامة درسا هاما فى سلوكهم هو: وجوب الدوام على اتهام النفس بالتقصير. و الذى ندركه من حقيقة سلوك الامام أنه كان حريصا كل الحرص على أن تكون سريرته أغنى بالاخلاص من ظاهره، و أغنى بالارادة الصادقة من بوادى أموره، و كان يعد الخلل فى هذا التوازن بين السريرة و العلانية، أو عدم اثراء السريرة عن العلانية بالنية الصادقة ذنبا يسأل الله تعالى أن يستره بغفرانه، و فوق ذلك كله فانه عد نفسه أحد المذنبين فى سابق الحال، و يرجو أن يواليه الله تعالى بالغفران. و قبل أن ننتقل الى هدف آخر من أهداف الامام التربوية فى فقه الايمان يحسن أن نعرض بالتحليل لعنصر الذنب الذى ورد فى هذا الدعاء. ما هو الذنب الذى اقترفه الامام، و الذى يشير الى احتمال العودة اليه راجيا موالاة الغفران؟ لا نجد فى سيرة الامام مطلقا ما يشير الى مظنة الذنب الا أحد أمرين: أولهما: استحالة الوفاء بحق الله فى التعبير عن العبودية الحقة قولا و عملا وفاء كاملا، بحيث لا يؤخذ عن العابد فيه أى مأخذ من قريب و لا من بعيد، فالنعم الالهية من الوفرة و الثراء بحيث لا يفى بها شكر شاكر، و مسألة الشكر فى ذاتها لا تنتهى الى نهاية، فالشكر تتبعه زيادة من الله تعالى فى الانعام، و لذلك قالوا: ان الشكر يحتاج الى شكر، و هكذا تنهار أقوى الهمم عن الوفاء بحق الشكر و موالاته تبعا لتوالى النعم، و هذه احدى وجوه العجز البشرى العام، و هذا العجز ان كان هينا فى نظر العامة بالنسبة للامام السجاد لأنه اتقى الله ما استطاع، فان الامام يعده ذنبا وجب الاستغفار منه. و ثانيهما: أن الحال كان يقتضى تغيير المنكر السائد فى الدولة من أعلاها الى أدناها، و كان المسئول الأول فى العصر هو الامام السجاد باعتباره البقية الباقية من سلالة النبى صلى الله عليه و سلم صاحب الدعوة، و الباذل نفسه فى سبيل تحقيقها على وجه الأرض قولا و عملا. ولكن مصائرين الجاهرين بالنهى الراغبين فى تغيير المنكر السائد كانت معروفة واضحة لدى الجميع، بالاضافة الى تخاذل الناس عن جدية العمل، و اشتهارهم بنقض العهود، و فى القاء الامام السجاد بنفسه الى تلك التهلكه المؤكدة خطر على الاسلام ذاته، اذ لا يوجد من بعده من ينهض بالناس على طريق القدوة و على تربية جيل فاهم واع لحقيقة العمل الاسلامى الصحيح. و من ثم كان وجوده لازما لبيان تلك الأسس للناس [صفحه ۲۹] فى نطاق مدرسته الزهدية. فاعتبر سكونه هذا ذنبا يجب الاستغفار منه، و هو فى الواقع ضرورة أملتها مصلحة الاسلام و الغيرة على أسسه أن تضيع من جهة، كما أملتها الأوامر الالهية الصريحة بعدم اعانة الانسان على نفسه اذا تحقق الهلاك. و من أهدافه التربوية التى لم يستطع كتمها وفاء بمذهب أهل الملامة الحق، و التى تعتبر ذات دلالة بالغة على القيمة الحقيقية لتفوق الامام الروحى ما يبدو من قوله: «ان قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، و آخرين عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار، و قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الأحرار». فهو هنا لا يتحدث عن نفسه، و انما يتحدث عن مسالك الناس فى العبادة حديث الواعى الفاهم لهدف الناس من العبادة بحيث لا يخرج عابد عما حدده الامام من أقسام ثلاثة. ولكن نلمح من حديث عن الناس ايمانه العميق بالحب الالهى الذى ظهر مبكرا فى صورة منظمة على يديه. فهذا الحب هو الذى تبدولوا معه منه عبادة الأحرار البريئة عن الخوف من العذاب، و الرغبة فى الثواب، فهى عبادة قوامها الحب وحده اذا لم يحدوها خوف و لا رجاء. و رغم أن عبادة العبيد و عبادة التجار مشروعة، و لا ضير على المسلم من عبادة ربه خوفا منه أو طمعا فيما عنده فان الامام زين‌العابدين قد هدف من قوله هذا الى رفع همم المسلمين الى أرقى مستويات الوعى الروحى بالترغيب فى الحرية الكامنة فى الشكر، و لا يستبعد أن يكون الامام قد هدف كذلك الى صد الناس عن الخوف و الرغبة اللذان دان بهما الناس لأولى الأمر حتى فسدت أعمالهم، و اختلت اراداتهم على الصورة المزرية التى عرفت عن عامة أهل ذلك العصر. و من هذا النص نفهم كذلك أن البخل الذى اشتهر به الامام لا حقيقة له الا فى معرض التستر و الاسرار بالعمل، و الرغبة فى شيوع العكس على طريقة أهل الملامة. و ذلك لأن الشكر الذى اعتبره الاسلام أصلا فى المعاملة بين الله و عباده، و الذى دان به الامام السجاد يقوم أساسا على: الاقرار باللسان، و عدم استعمال النعم فيما كره الله، و وجوب العود بها على أهل العدم و

المسكنة. و أعلى الشكر ما عاد به الشاكر على أهل المسكنة سرا، و أعلى منه أن يعود الشاكر عليهم من حيث لا يعلمون من الذى أعطاهم، و ذلك كان مسلك الامام زين‌العابدين رضوان الله عليه. ولكن الأمر الذى لم يستطع كتمه حقا، و لا طاقة لانسان على كتمه فهو ظهور آثار [صفحه ۳۰] الانفعالات الوجدانية على ظاهر ملامحه حينما كان يقف بين يدى الله تعالى. فقد كانت تظهر عليه رعدة، و يعلو وجهه شحوب، و ينتفض انتفاضة ظاهرة سنعرض لها بالتفصيل مع غيرها من مظاهر وعيه الروحى فى مكانها ان شاء الله، ولكن الذى يهمنا هنا أنه أعلن أن هذه الظواهر البدنية ما هى الارد فعل لما يحسه من هيبة الله تعالى حين يستعد للوقوف بين يديه للمناجاة. فكيف يستقيم هذا الاعلان مع مبدأ الاسرار بالعمل الذى دان به عن طريقة أهل الملامة الأصلاء الأقدمين؟ و نقول: ان ستر الأعمال، أو «الملامتية» ان صح أن نطلقها على سلوك الامام السجاد فى أصل وضعها لا تحظر اعلان الأصول العملية للقدوة و التربية لا سيما و قد كانت هيبة الله توشك أن تندثر من قلوب أهل العصر فى أيام زين‌العابدين. و هل هناك من خير فى ستر مظاهر الهيبة المتسلطة على القلب من جلال الله بين أقوام تسلط عليهم الطمع و سادهم حب المال، و عدوا بسيوفهم و ألسنتهم على آل بيت النبوة؟ بل ان الخير كله فى اظهار ما كان يصح اخفاؤه لا سيما من امام جليل كزين العابدين يأمن الرياء و يأمن علل الأعمال الأخرى بحكم نشأته و دربته على العمل العبادى الصحيح منذ نعومة أظفاره. و هكذا نلمس بوضوح أصول «الملامتية» فى سلوك الامام السجاد، ولكنها عنده مذهب لا يحيد به عن الطريق، فهو يتلمس أسبابا من الظروف المحيطة بحياته يستر بها أعماله، و يخفى بها حقيقة مشاعره العبادية، و يوجه أنظار الناس نحو تلك الأسباب طلبا للكف عن الثناء عليه و تمييزه بين الناس بالشهرة، و هو ينآى عن كل سبب مصنوع يستر به العمل أو هدف العمل، فالصناعة طريق شائك تخبط فى ظلماته من جاء بعده ممن أسسوا الملامتية مذهبا منظما له قواعده، شأنهم فى ذلك شأن كل من حاول برأيه تطوير دين أو ابتداع ما يسميه بالبدع الحسنة، فذلك نهايته المروق و التخبط فى الظلمات. و الآن نعرض لمذهب أهل الملامة فى ايجاز نتبين منه كيف انحرفوا به عن الطريق بعد السجاد. و أقرب النصوص التى توحى بالملامة الى عصر الامام زين‌العابدين: أن سفيان الثورى خلا مع الفضيل بن عياض فبكيا، فقال الثورى: انى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا خير [صفحه ۳۱] مجلس جلسناه. فقال الفضيل: ترجو، ولكنى أخاف أن يكون شؤما علينا. و علل الشؤم بأنه تزين كل منهما للآخر بأحسن ما عنده من القول، فعبد كل منهما الآخر من حيث لا يرى. و أقر الثورى فضيلا على رأيه و قال: «أحييتنى أحياك الله». و الفضيل نفسه هو الذى وقف له على باب المسجد جماعة بعض الزهاد من الشبان على باب المسجد، و عليهم الصوف بالكوفة، فخرج عليهم فلما رآهم قال: «وددت أنى لم أركم و لم ترونى، أترونني سلمت منكم أن أكون لكم ترسا حيث تراءيتم لى و تراءيت لكم؟ لأن أحلف عشرا أنى مراء و خادع أحب الى من أن أحلف واحدة أنى لست كذلك». فهنا ملامح للملامة قويمة المسلك، تنزع نحو البراءة من الدعوى، ولكنها لا تتخذ من الظروف المحيطة بالنفس ستارا حول المواهب الروحية و غيرها من ألوان التفوق الدينى، بل تنزع نحو اتهام النفس علانية على الصورة التى نراها عن الفضيل بن عياض. و من قبل الفضيل - و هو أقرب الى عصر زين‌العابدين كان منصور بن المعتمر السليمى الزاهد الكوفى المتوفى عام، ۱۳۲ و كان قد صام أربعين سنة، صام نهارها، و قام ليلها، و كان يبكى الليل فتقول له أمه: يابنى أقتلت قتيلا؟ فيقول: أنا أعلم بما صنعت نفسى. فاذا أصبح كحل عينيه، و دهن رأسه، و برق شفتيه، و خرج الى الناس. و هذا نموذج طبيعى للملامتية التى تستر الأعمال بما هو مباح من الأعمال و الزينة. فالملامة على هذا: اظهار أدون الأحوال العبادية و كتم معاليها، فليومهم الخلق على ظواهرهم، و يلومون أنفسهم على ما يعرفون من حقائقها. و يفرق الدكتور أبوالعلا عفيفى بين الصوفى و الملامتى فى كتابه «الملامتية و الصوفية و أهل الفتوة» فيقول: ان الفرق بينهما: أن الصوفى ينم ظاهره عن باطنه، و تظهر عليه أنوار أسراره فى أقواله و أفعاله، لذلك لا يتحرج الصوفى عن اظهار الدعاوى كالحلاج و غيره. أما الملامتى فحفيظ على سر الله، يكتم فى نفسه ما بينه و بين ربه على عدم التحقق من التقصير. و بعد زمان طويل جاء حمدون القصار المتوفى سنة ۲۷۱ من الهجرة، و قرر لطلاب طريقا الى الستر منحرفا فقال: «اذا رأيت سكران فتمايل لئلا تبغى عليه فتبتلى بمثل ذلك». و منه ترى تحول الهدف الأصلى للملامة الى هدف آخر أتقاء الاعتراض على العصاة، و قد مربنا نقد هذا القول أول هذا الفصل. [صفحه ۳۲] و من مدرسة حمد و

القصار انتشر مذهب الملامة كما يقول السلمى الذى وصفه بأنه شيخ أهل الملامة. و من الأمثلة التى نراها قد انحرفت بالملامة عن أصولها الأولى التى لمسناها عند الامام زين‌العابدين، و فتحت أبواب الانحراف للصوفية تحت ستار الملامة ما روى عن أبى‌حفص الحداد من تأديبه مريده أباعثمان الحيرى، اذا أودع تاجر من تجار نيسابور جارية عند الحيرى، فوقع نظره عليها يوما فعشقها و شغف بها، فكتب الى شيخه الحداد بالحال، فأمره بالسفر سعيا الى صحبة شيخ يسمى يوسف بالرى، فلما وصل الى الرى، فلما وصل الى الرى وسأل الناس عن منزل الشيخ يوسف أكثر الناس فى ملامته و قالوا: كيف يسأل تقى مثلك عن بيت شقى فاسق، فرجع الى نيسابور وقص على شيخه القصة، فأمره بالعودة الى الرى و ملاقاة الشيخ يوسف. فلم يبال بذم الناس له، وازدرائهم به، فقيل له: انه فى محلة الخمارة، فأتى اليه و سلم عليه فرد عليه‌السلام و عظمه، و كان الى جانبه صبى بارع الجمال، و الى جانبه الآخر زجاجة مملوءة من شىء كأنه الخمر بعينها. فقال له الشيخ أبوعثمان: ما هذا المنزل فى هذه المحلة؟ فقال: ان ظالما اشترى بيوت أصحابنا و صبرها خمارة، لوم يحتج الى شراء دارى. فقال: و ما هذا الغلام؟ و ما هذه الخمر؟ فقال: أما الغلام فولدى من صلبى، و أما الزجاجة فخل. فقال: و لم توقع نفسك فى مقام التهمة بين الناس؟ فقال: لئلا يعتقدوا أنى ثقة أمن و يستودعونى جوابهم فأبتلى بجهن. فبكى أبوعثمان بكاء شديدا و علم قصد شيخه. من هذه النقطة بدأ انطلاق جديد نحو اختلاق أسباب جديدة للتستر هى فى ذاتها محرمة أو مكروهة، كما رأيتا فى القصة السابقة من اصطناع مجالسة المرد، و اصطناع شبيه بالخمر، و قد تطورت تلك الأسباب فى نطاق الملامتية فأصبح الشاب الأمرد أجنبيا، و أصبح الخل خمرا حقيقيا، بل ان الأمر قد تطور فيما بعد الى فضائح دعت أمثال جولد تسيهر الى أن يقول فى كتابه «العقيدة و الشريعة»: انهم كانوا «يهتمون بكل ما يثير السخرية و الفضيحة بمسلكهم، و ما يجر عليهم مذمة الناس لهم، و يرتكبون من الأعمال ما يعد مخجلا للدرجة القصوى يبغون بذلك تطبيق مبدئهم و هو: ازدراء الاحتقار». و قد تطورت الملامتية بحكم هذا الانطلاق الى طريقة أطلق عليها اسم «القلندرية»، و من شيوخهم قطب‌الدين حيدر (ت ۶۱۸) و يقول المقريزى: انه أباح لتلاميذه تناول [صفحه ۳۳] الحشيش، و اهمال الواجبات الشرعية. و يحاول السهروردى التخفيف من الشعور بانحرافهم فيقول: انهم طرحوا التقيد بآداب المجالسات و المخالطات... و ساحوا فى ميادين طيبة قلوبهم، فقلت أعمالهم من الصوم و الصلاة الا الفرائض... و ربما اقتصروا على رعاية الرخصة، و لم يبالوا بحقائق العزيمة». و النظر الدقيق فى سلوك أكثر متصوفة عصرنا الحاضر يعطينا حقيقة هامة هى: أنهم يتمسحون بمذهب أهل الملامة و يفسقون عن دين الله بحجة ستر الأعمال و الأحوال. حقيقة ان فيهم أقواما فضلاء أخلصوا دينهم و أعمالهم لله، ولكن بينهم كثيرا من الأدعياء، و من هؤلاء الأدعياء جهلاء يختلط رجالهم بنسائهم، بل و قد يجمعهم فراش واحد، و منهم من مسخ هيئته و ملبسه حتى يصير مثيرا للضحك و السخرية. و منهم عالمون بأحوال الطريق دارسون لطقوسه، سالكون فى ظاهر الأمر لدراجاته، ولكنهم رغم ما يسحر مجالسهم من سماع أحسن القول فى مقامات الطريق فاقدون للأمانة، يتخذون علمهم وسيلة لكسب الدنيا تحت ستار ثقة الناس فيهم، و باسم أهل الملامة. من هنا تأتى أهمية الامام السجاد فى تخطيطه الواضح الذى لا يحتمل التطوير و لا التجديد لأصول الملامة و وسائلها الشرعية التى يتحتم أن تؤخذ بحذر ودقة و فحص بحيث لا يخرج الملامتى عن واقع بيئته و لا واقع شريعته فى شىء. فاذا كانت «الملامة» ضرورية لاحتفاظ الانسان المؤمن الصادق الارادة بسرية أعماله، و سرية هدفها الموجه نحو الله تعالى وحده، فان الوسائل الموصلة اليها لابد أن تكون من واقع حياة الانسان العابد الراغب فيها كما كان عليه الامام السجاد، و اما أن تكون وسائل شرعية بحتة كالفقه و رواية الحديث كما كان عليه المخلصون من أئمة السلف من أمثال الثورى و مدرسته، و اما أن تكون عملا اجتماعيا يفصح عن حقيقة الاخلاص، و حقيقة الارادة كما كان يفعل ابراهيم بن أدهم، اذ كان يعمل حصادا، و حارسا للبساتين، ثم يعود بما زاد عن الضرورة من أجره على اخوانه و على أهل العدم و المسكنة من المسلمين. أما أن يصطنع الملامتى أسبابا أخرى تكون مظنة للفسوق و المعصية فهذا هو الانحراف بعينه. فالعقل و المنطق لا يقر الوصول الى الطاعة بما يشبه المعصية، أو بما يشجع الجهلاء على المعصية، و الأصول التى سار عليها السلف لا تؤيد تلك الأعمال البلهاء التى تساعد على التفلت من قيود الشريعة السمحة. [صفحه ۳۴] على أن سلوك أهل الملامة فى ذاته لا تمس الحاجة الى اصطناعه ان لم يكن من

طبيعة حياة الانسان سبب ساتر للعمل، أو كان فى استعداد السالك ميل الى درس العلم و الفقه مثلا. فهو مذهب كما رأينا كان سريع الانحراف بأهله فى عصر قريب من عصر النبوة، فما بالنا فى عصرنا الحاضر و قد بعد العهد بعصر النبوة، و انحلت الهمم عن درس سير السلف؟ لقد كان السلف يصطنعون الملامة مذهبا لستر أرفع الأحاسيس و أرضاها لله تعالى، فأصبح المحدثون يصطنعونها لستر أقبح الكبائر، و أدون الأخلاق و اسخطها لله تحت ستار دعوى التصوف، و التشدق الممقوت بالمنازل و الأحوال. و لقد مضى الامام السجاد فى بيان أهداف الملامة بالسلوك العملى و القدوة الحسنة الى حد الاشارة الى حال من أحواله جاء عفوا و دون عمد منه، بل ساقه القدر اليه ليكون فارقا بين ملامتية القرن الأول و ملامتية القرن العشرين و من قبل العشرين. روى الذهبى فى تذكرة الحفاظ أنه سقط ابن‌للامام السجاد فى بئر ففزع أهل المدينة كذلك حتى أخرجوه فكان قائما يصلى فى المحراب فما زال فى مكانه. فقيل له فى ذلك فقال: ما شعرت، لأنى كنت أناجى ربى. و قد يشك بعض المحدثين فى مثل هذه الرواية، و نقول: انه شعور موروث عن النبى صلى الله عليه و سلم، فقد روت عائشة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه و سلم كان يكون فى أهل‌بيته، فاذا سمع الأذان مضى و كأن لم يعرفنا. كما تواترت الروايات عن سجود النبى صلى الله عليه و سلم وقتا طويلا غير مألوف، كما جاء عنه صلى الله عليه و سلم أن له وقتا لا- يسعه فيه غير ربه. فتلك فترات من حياة الأطهار تنقطع الصلة تماما بينهم و بين العالم المحيط بهم فلا يشعرون الا بسلطان الهيبة الالهية يسيطر على كل جوانبهم، و على جميع مداركهم فلا يحسون بشىء الا بما هم فيه من جلال المناجاة. على أن الروايات تقول: ان عروة بن الزبير مرض وقرر الطبيب بتر عضو من أعضائه فاختار الصلاة عملا يقوم الطبيب فيه بمهمة أثناء تأديته لها، و قطع الطبيب ما أراد و لم يشعر عروة. فان صح أولم يصح هذا الخبر فهو دلالة واضحة على أن فى السلف من كان يغيب عن كل شىء و هو يناجى ربه، و كفانا هذه الحقيقة حجة على صدق تلك الموهبة و وجودها لدى أهل‌بيت النبوة، ولكنا نشك مع الشاركين فى عمومها و انسحابها على هذا العصر الذى نعيش فيه الا فى حالات فردية لا تتكرر الا بين أجيال و أجيال. [صفحه ۳۵] و نعود الى بحثنا فنرى أن الامام السجاد كان يصطنع الملامة، فينسب بكاءه الى فقد الأحبة ليخفى أمثال تلك المشاعر التى تلونه بالجلال، و تمكنه من مقامه فيبكى، و كفاه أن يكون بكاء من البكائين، و لم يشتهر فى عصره بأنه من أهل المقامات العلية فى عبادته. و لا تتردد فى القول بأنه انما أفصح عن دخيلة أمره فى هذه الواقعة تعليما لمن حوله، و تنشيطا لهممهم التى كانت تشدها الأرض الى ترابها، و تعليما للمسلمين على مدى العصور فى هذا الصدد، و قد شاءت الأقدار أن تكون تلك الواقعة كذلك حقا يدفع باطل المدعين فى عصرنا الحاضر، و ميزانا يوزن به مدعى الملامة الفاسق، و المتحقق بها على هدى من ربه، فهو الميزان الذى لا يخطىء. و الحق أننا لا نجد بين المدعين فى عصرنا لمذهب أهل الملامة من يفتقد أتفه شىء مما يملك أثناء غيبته المصنوعة عن الخلق دون أن يتحول على الفور الى وحش كاسر فى مواجهة منسلبه هذا الشىء التافه. بل انه قد يتستر بالملامة من كبائر سيطرت على كيانه، و نفاقا للناس ليحسنوا الظن به، و وسيلة لاقتناص أموالهم و أعراضهم تحت هذا الستار. و من هنا تأتى أهمية سلوك الامام السجاد فى تحقيق مذهب أهل الملامة و تحقيق وسائله الشرعية، و التفرقة الصحيحة بين أهل الملامة الحقيقيين، و بين «قلندرية» العصر من أهل الفسق و الفجور و النفاق. [صفحه ۳۶]

مواهب روحية

قلنا فى الفصل السابق: ان الامام السجاد كان متفوقا فى مواهب الروح بحكم وراثته، و بما حباه الله تعالى به من عقل راجح، و توفيق الى طريقه حتى صار أفضل آل البيت، و أفضل هاشمى على الاطلاق. و مواهب الروح تختلف عن المواهب المألوفة لدى عامة المفكرين و الأذكياء، لأنها ترتاد الآفاق المجهولة للعقل و الحس، و ترتد من رحلاتها فى مجاهلها الى عالم الكون المنظور تسلك بصاحبها فيه سلوكا يبدو فى أنظار الناس شاقا على النفس، لا يقوى عليه جمهورهم، ولكنه فى الحقيقة مصدر سعادة و رضى لسالكه لا- يدركهما الا- مجرب. و مواهب الروح تنبع أولا- من معنى الاسلام، تبدأ منه، و تنتهى اليه فى ظاهر الأمر و حقيقته على السواء.

فالبداية من معنى الاسلام فى ظاهر الأمر بالاذعان و الاستسلام المطلق لكل ما يرد من الغيب من أمر الهى، و كل ما علم عن رسوله صلى الله عليه و سلم من سنن و تفسيرات لأوامر الله تعالى، ايمانا بها و تصديقا لها، و تنفيذا عمليا مقترنا بالاقتناع بها و حبها دون تدخل من جانب النفس أو العقل بالاعتراض أو بالتفضيل لمسلك دون آخر. و البداية من معنى الاسلام فى حقيقة الأمر نعنى بها الاقتناع بجدوى دستور الغيب فى ترقية النفس، و صفاء القلب، و المسارعة الى العمل للاستزادة من تلك الآثار التى تنمو بموالاة العمل، و الحرص عليه و التسابق اليه، دون شعور بالكلفة و لا المشقة المصاحبة له فى بعض الأحوال. تلك هى بداية الوعى الروحى من معنى الاسلام، و هى كما نرى ذات وجهين: عمل فى استسلام دون اعتراض، و شعور وزون لروح العمل يكون معه الحرص عليه و حبه و اليقين بمدواه على الانسان. أما نهاية الوعى الروحى و مواهبه فهى كذلك لا- تخرج عن معنى الاسلام فى الظاهر و الحقيقة كبدايته تماما مع اختلاف فى الذوق و الاحساس. فهى فى ظاهر الاسلام: استسلام كامل لمراد الله، و رضى بما يجرى من قدره، و شعور [صفحه ۳۷] بالسعادة من هذا الذى يجرى من القدر سواء أكان مما يعده الناس نعمة، أو مما يسمونه نقمة، فالكل سواء، لأن الشعور قد تسامى عن عالم الأسماء، و ثبت عند منبعها فلا يرى فيه الا حكمة بليغة تصدر على صورة بلاء فى اطار نعمة، أو على صورة نعمة فى اطار نقمة، و مادام نبع القدر خيرا كله، فكل ما يجرى منه خير كله. و النهاية فى حقيقة الاسلام هى: القاء الانسان نفسه و كل مداركه، و اطراحها جانبا، و التعرض لنفحات الله تعالى فى أيام الدهر، و اصغاء السمع بالقلب الى الصمت الرهيب فى عالم الغيب، و فى هذا الصمت تتوالى التجليات الالهية فى مراتب تنزلها الى عالم المشهود جلالا- تصطلم له القلوب، و تغنى عنده المشاعر و المدارك، و ينبع فجأة شعور واع بالعظمة لا يدركه أحد غير أصحاب المواهب الروحية. و لتقريب وعى الروح الى العقول نتصور انسانا يقف أمام محكمة عليا يمكن أن تصدر حكما باعدامه أو بحبسه الانفرادى مدى الحياة، فهل تجد لدى هذا الانسان بقية من شعور يوجهها نحو نزهة خلوية مثلا، أو سهرة صاخبة على غرار ما يفعل الطليق من القيد خارج قاعة المحكمة؟ و هل تجد شعور هذا الذى يقف أمام المحكمة مساويا لشعور الذى صدر عليه حكم الاعدام بالفعل؟ و هل تجد شعور هذا المحكوم عليه بالاعدام مساويا لنفس شعوره و هو يساق الى ساحة التنفيذ؟ تلك مراحل ثلاث تختلف فى درجات التخلى عن المشاعر البشرية حتى تصل الى حال النهاية التى يندثر فيها الشعور بالبشرية و نوازعها تماما و لا تبقى الا معاينة المجهول، و التردد فيه بين الخوف و الرجاء، لا يجد مستقرا على أحد الوجهين، لا لشىء الا لأن مصدره مجهول مع أنه معلوم بالقلب، و من هنا تكون الحيرة بين الخوف و الرجاء مساوية للحيرة بين الجمال و الجلال المعلومين من تجليات الغيب الأقدس. و كان الامام زين‌العابدين على درجة عالية من التفوق فى مواهب الروح أثرت فيمن حوله و فيمن بعده، و لا زالت تؤثر الى الآن فى الملايين من محبيه و هم فى غالب الحال على جهل كامل بسيرته، و يبدد ذلك من استعراض عالم لمعالم زين‌العابدين فى قلوب المسلمين جاهلهم و عالمهم، فانك لا تجد الا اكبارا و اجلالا و وقوفا عند ذكراه فى على مدى أثر الروح اليقظ الواعى فى الناس عبر العصور. [صفحه ۳۸] أما دراويش الامام القابعون حول مسجده فى القاهرة فهم دلالة - مع جهلهم - على مدى ما بلغ الامام من مواهب الروح و التمكن فى أحوال العبادة و مقاماتها، و لا- نقول: انهم علماء عارفون بمدى تفوق الامام الروحى، بل نقول: ان ما تواتر من أخبار تفوقه قد تناقله المولعون بسيرته حتى وصل الى هؤلاء المرتزقة مشوشا مهزوزا، ولكنه على هذا التشوش دلالة تشبه تماما دلالة أقوال التراجمة الشعبيين على قيمة الآثار و تاريخها حينما يواجهونك متحدثين عنها فى منطقة الأهرام مثلا. و سنحاول التدرج من تقييم كبار العلماء له فى مواهب الروح، الى استنباط بعضها من وقائع حياته، الى تقييم العامة لمواهبه حتى ندرك المدى البعيد الذى أثرت به مجتمعات الاسلام من تأثير الامام فيها. فاجماع علماء العصر و نقاد الرجال فيه على أنه أفضل بنى‌هاشم على الاطلاق فى زمانه. قال يحيى بن سعيد: سمعت على بن الحسين و هو أفضل هاشمى أدركته يقول: أيها الناس، أحبونا حب الاسلام، فما برح بنا حبكم حتى بغضتمونا الى الناس. و قال سعيد بن المسيب، و زين بن أسلم، و مالك، و أبوحازم: «لم يكن فى أهل‌البيت مثله». و كان الزهرى يقول اذا ذكر على بن الحسين: «هو أقصد أهل‌بيته و أحسنهم طاعة». و كان هو و أبوحازم يقولان: «لم نرى هاشميا قط أفضل من على بن الحسين». و قال الزهرى أيضا: «كانت أكثر مجالستى مع على بن

الحسين، و ما رأيت أفقه منه، و كان قليل الحديث، و كان أفضل أهل‌بيته و أحسنهم طاعة». و قال رجل السعيد بن المسيب: ما رأيت أورع من فلان. فقال سعيد: هل رأيت على بن الحسين؟ قال: لا. قال: ما رأيت أورع منه. تلك بعض شهادات كبار العلماء و أشدهم تحفظا و أنقدهم للرجال فى الامام السجاد، و كلها تجمع على أنه أفضل أهل‌بيته، و أهل‌بيته أفضل الناس على الاطلاق، كما تجمع على تفوقه فى الورع و الفقه و الطاعة. و الورع - و هو من واهب الروح - يعنى ترك جميع الشبهات التى لا يقطع الفقه بحلها و لا بحرمتها، و العدول عنها الى الحلال الخالص الذى لا شبه فيه. و لئن كان العامة من العلماء لم يقطعوا بعصيان من تناول الشبهة اذا غلب عليها الحل، فان الموهوبين [صفحه ۳۹] روحيا لا يتناولونها ايثار المرضاة الله، و خوفا من الذلل فى جانبه تعالى، و حرصا على طهارة الجسد اللازمة لقبول الأعمال و الافادة منها. كان الامام فى مكانه من آل بيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يستطيع أن يسخر المجتمع لقضاء حاجاته، و كان يمكنه أن يعيش حياة رغدة لو أنه قبل ما يرجو الناس قبوله من صلات باعتباره من آل البيت النبوى، ولكنه لم يفعل تورعا عن شبهة الحرام الكامنة فى استغلال الجاه النبوى فى احراز وسائل الانتفاع. و يقول جويرية بن أسماء فى رواية ابن‌كثير فى البداية و النهاية: «ما أكل على بن الحسين بقرابته من رسول صلى الله عليه و سلم درهما قط». و الامام يعتبر الورع نهاية الزهد حين يقول: «أعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع». و يتدرج فى التعريف بمقامات السلوك من الورع فيقول: «و أعلى درجة اليقين». فالذى يبلغ نهاية الورع يتحرز من أشياء قد لا يتحرز منها الكثيرون من فضلاء أهل الدين، و ذلك كالتحرز من الميراث الشرعى اذا وجدت فيه شبهة، و التحرز من أخذ سهام الغزو فى سبيل الله ايثارا لاخلاص العمل لله وحده. و لا يصل الى هذه الدرجة الاصاحب يقين يعاين غير المنظور و كأنه شهود من أمر الثواب و العقاب و الهيبة لله و عظيم أمره. ثم يقول الامام: «و أعلى درجة اليقين أدنى درجة اليقين أدنى درجة الرضى»، لأن الشهود اذا قوى و شمل غير المنظور كله. و دق العلم به فلابد أن يدفع الانسان الى الرضا بكل ما يجرى من القدر، و اعتباره خيرا من حيث تعجز البشرية عن التمييز بين الخير و الشر. و ينتهى الامام فى بيان مقامات السلوك قبل أن يبرز الصوفية الى الوجود فيقول مؤكدا الا وجوب البراءة من الحول و القوة و الناس و كل ما فى اليد و ما يتيحه الجهد من قضاء الحاجات المصالح، و يؤكد أن هذا السلوك يرفع العوائق من الطريق بين العبد و ربه، و يؤهله لولاية الله تعالى لأمره، و الاستجابة له فى كل أموره، و ذلك حين يقول: «رأيت الخير كله قد اجتمع فى قطع الطمع ما فى ايدى الناس، و من لم يرج الناس فى شىء ورد أمن الى الله عزوجل فى كل أموره استجاب الله له فى كل شىء». بقى أن نقول: «ان الامام قد بلغ فى اليقين و الرضى مبلغا يعتبر بحق من أسمى و أعلى ما وصل اليه بشر فى هذا المضمار. أما الرضا فيتجلى فى مقابلته للسيئة بالحسنة على صور غير مألوفة للكثير من الناس [صفحه ۴۰] سنتحدث عنها ان شاء الله فى أثناء الحديث عن أخلاقه، و نشير هنا الى حال من أحوال الرضى بناه الامام على اليقين تحقيقا لرأيه السابق فى مراتب السلوك، و ذلك أن رجلا قد أساء اليه، فمكن الخليفة الامام من خصمه فلم يعرض له، فقال له ابنه عبدالله: يا أبت لم لا نتعرض له، و ان أثره عندنا لسىء، فقال: «يا بنى نكله الى الله، فوالله ما عرض له أحد من آل الحسين بحرف الا تصرم أمره». و لا شك عند أهل الفقه فى جواز القصاص من المعتدى بمثل ما اعتدى به، ولكن الامام حينما بلغ أعلى درجات اليقين شاهد عيانا ما عندالله لأهل الصفح و المغفرة، فآثر الرضى بما جرى لأن شهد ما فى الصفح من خير أبهمه القرآن الكريم لجزالته و عظمته حتى لا تطيقه العبارات، و ليس أدعى الى تصرم الأمر حقا من الارتداد عن الدرجات العليا الى الدرجات الدنيا من خلائق القرآن و آدابه. و من معالى يقينه ما أجمعت عليه الروايات من أن الامام كان اذا فرغ من وضوئه للصلاة و صار بين وضوئه و صلاته أخذته رعدة و نفضة، فقيل له فى ذلك، فقال: «ويحكم، أتدرون الى من أقوم، و من أريد أن أناجى»؟ فهو كما نرى يشهد ما بعد الوضوء من المناجاة الموجهة الى الله شهودا يقرب من درجة العيان و ان كان عيانا بالقلب و الهمة، و من ذا الذى لا يرتعد و ينتفض اذا أيقن بموقفه من ربه فى الصلاة؟ و ان الرجل العادى لينتفض و يرتعد الا اذا وقف بين يدى ولاة الأمر، فما الحال و الموقف بين يدى الاله القاهر فوق العباد؟ ولكن المسألة هى: الغفلة، أو اليقين. و منه واقعة سقوط ابنه فى البئر، و عدم شعوره بما جرى حتى أنقذه الناس و قد رويناها من قبل. و روى ابن‌كثير أن البيت الذى هو كان قد احترق و هو قائم يصلى، فلما انصرف قالوا

له: مالك لم تنصرف؟ فقال: انى اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى. و روى أبونعيم و ابن‌كثير: أن الامام سمع ناعية (و فى رواية ابن‌كثير داعية) فى البيت و عنده جماعة، فنهض الى منزله ثم رجع الى مجلسه، فقيل له: أمن حدث كانت الناعية؟ قال: نعم، فعزوه و تعجبوا من صبره، فقال: «انا أهل‌بيت نطيع الله فيما نحب، و نحمده فيما نكره». و تلك قمة الرضى لا يدركها الا أهل‌البيت النبوى و السائرون على هداهم، هو: [صفحه ۴۱] بذل المحبوب الذى تتعشقه النفوس، و تحرص على اقتنائه من مال و ولد و متاع، و محوه من القلب اذ أراده الله، و السرور بكل ما تنفر منه النفوس من بليته أو محنة فى مال أو ولد، و مقابلة هذا الفقد بالحمد و الشكر على ما يقابله من نعيم موعود مشهود بعين اليقين. و هذا اليقين على هذه الصورة ليس رجاء كله، ولكنه كما يغلب عليه الجلال و الخوف فى كثير من الحالات، لا سيما عند أداء الفرائض التى يخشى الموقنون ألا تقبل لما يعتورها من تقصير قائم على اتهام النفس. و من هنا قد يتردد الموقن بعامل الخوف و يضطرب أمره حين أداء الشعائر، و ما هذا الاضطراب الا دلالة على قوة اليقين، و قوة المشاهدة معا. قال طاووس بن كيسان: لما حج على بن الحسين أراد أن يلبى، فارتعد و قال: أخشى أن أقول: لبيك، اللهم لبيك، فيقال لى: لا لبيك، قال: فشجعوه على التلبية، فلما لبى غشى عليه حتى سقط عن الراحلة. و ما كان ذلك الا عن شهود قلبى على وجه اليقين من اجابة الله تعالى له بما أذهله عن وجوده من أنواع الملاطفات و فيض الحب، و ان المرء لتساوره الغشية من تذكر و تأمل، فما بال أهل اليقين و الشهود؟ و الشهود هو القرب، و القرب قمة مواهب الروح. و القرب هو اختصار الوسائل فى ادراك غير المنظور على صورة ما من صور الادراك، و كلما قلت وسائل الادراك علت الدرجة فى مقام القرب، و اشتد الاحساس بالمشهود، و تسارع وعى الروح الى الاستجابة لأمور الغيب. انه سقوط الحجب التى تحجب القلب أو الروح عن الشعور بالحقائق المتجلية فى مظاهر الحياة، فتلك الحجب تصد فيض النور الفائض من الغيب المطلق عن الوصول الى القلب، فيبقى القلب مظلما، و لا يفيد وقوع النور على حجب النفس الممثلة فى الأهواء و الشهوات و عقد القلب على حب الماديات. و لتقريب الفهم نقول: ان القلب الفطرى مضىء بطبعه، مستعد لتلقى الأنوار الفائضة من الغيب فى سرعة و وعى وفقه عميق، و الذى يحجب القلب عن عمله، أو يبطىء منه هو تعلقه بالمظاهر المادية حبا و عشقا على أى صورة من صور الحلال أو الحرام، ولكن [صفحه ۴۲] اتعلق بالحلال يدعه محجوبا، أما التعلق بالحرام فيدعه أغلف أصم فاقدا لطبيعته المنيرة الواعية. و كلما كثرت الحجب انعدمت استجابة القلب للظواهر الروحية الغيبية، و كلما قلت الحجب أبطأت استجابته لتلك الظواهر، فاذا انجابت تلك الحجب بعامل المجاهدة و التطهير، أو بعامل الطبع و الاستعداد فان الانسان حينئذ يصبح موهوبا فى عالم الروح، يدرك الحقائق من حيث لا يدركها المحجوبون، و يتفاعل معها فى سرعة من حيث يبطىء المجاهدون لازاحة الحجب. و من هنا كان ارتعاد فرائض السجاد و هو يستعد للصلاة، و كانت صرعته حين التلبية، فهو صاحب قلب نقى صاف طاهر من الدنس يدرك آثار الغيب فى كل موجود فيزداد فقها و علما، و يواجه الغيب فيرتعد أو يصعق، و هى وراثة نبوية معهودة فى طبائع النبى محمد صلى الله عليه و سلم لا تخفى على دارس. و من هنا كذلك كان تقييم العامة للامام صدى لما كان معهودا فيه فى حياته على صورة من صور المجاز أو الحق، فهو فى نظرهم باب الأسرار، و هم كما يقولون كلاب على باب على. هو باب الأسرار لأنه رجل الروح الموهوب فى عالمها، يدرك مالا يدركه العامة، و يشهد مالا يشهده المجاهدون. و هم كلاب على بابه فى صورة من صور الاخلاص المعهودة فى الكلب، يقيمون على بابه رغبة فى الاستهداء بهديه، و تقليده فى سلوكه كما كان الشأن فى مريدى العلم و السلوك فى الصدر الأول. و الى جانب هذا و ذاك هو باب الكرم، يقصده طلاب الرفد فى العصر الحاضر كما كان يرجو رفده العفاة فى حياته، و ما أعجب أن تحيا الخلائق بعد وفاة الامام فيعيش الآلاف على العطاء المبذول عند مسجده حبا فيه، كما كان يعيش الناس على عطائه الشخصى فى حياته. أليس ذلك من مواريث الصدق فى السلوك، و أثره الفعال من عالم البرزخ؟! [صفحه ۴۳]

عالم أهل‌البيت

كان العلم من خصائص أهل‌البيت، فكانوا مرجع الخاص و العام فيه بحكم البيئة التى عاشوا فيها، و بحكم القدوة العملية التى نشأوا

عليها منذ نعومة أظفارهم. و كان الامام السجاد أفقه أهل زمانه، و شهد بذلك الامام الزهرى الذى كان يدمن الجلوس اليه، و يفيد من علمه الغزير. و الاجماع على أنه كان قليل الحديث، و كان ثقة مأمونا عاليا رفيعا فى الاسناد. أما قلة حديثه فترجع الى أنه لم يكن بحاجة الى الرواية و تتبع الحديث لأنه ربيب السنة، و شاهد أصولها فى سلوك أبيه و فى سلوك الصحابة الذين شهدهم، و فى سلوك أمهات المؤمنين. كان قد روى الحديث عن أبيه الامام الحسين بن على رضوان الله عليهم، و عن عمه الامام الحسن بن على، و عن ابن‌عباس و المسور بن مخرمة و أبى‌هريرة و جابر و صفية، و عائشة، و أم‌سلمة، أمهات المؤمنين رضى الله عنهم جميعا. و روى عنه جماعة منهم: بنوه زيد، و عبدالله، و عمر و أبوجعفر الفقيه محمد بن على، و من غيرهم: زيد بن أسلم، و طاووس بن كيسان، و الزهرى، و يحيى بن سعيد الأنصارى و غيرهم. و يقول أبوبكرن أبى‌شيبة فى جودة سنده: «أصلح الأسانيد كلها: الزهرى عن على بن الحسين، عن أبيه عن جده». و كان العصر غنيا بالفقهاء الذين كانوا يرجعون اليه، و يتتبعون فتاواه فى المعضلات. و من عجيب الأمور أن كثيرا من الفقهاء الكبار ماتوا فى السنة التى مات فيها شيخهم على بن الحسين، حتى أطلق المؤرخون على تلك السنة «سنة الفقهاء»، و منهم: سعيد بن جبير، الذى قتله الحجاج، و سعيد بن المسيب، و طلق بن حبيب الغنرى، و عروة بن الزير، و أبوبكر بن عبدالرحمن بن الحارث. و كان زين‌العابدين رغم جلالة قدره فى العلم، و سيادته و شرفه بين العرب لا يأنف من تتبع مصادر العلم الأخرى، فيجلس الى غيره متعلما أو مستفيدا لا يجد فى ذلك [صفحه ۴۴] من القصاصة ما يجده الكثيرون من علماء العصر الحاضر المحدثين. و كان الامام كما قلنا من قبل و نقول الآن: ذا سلوك هادف فى جميع الميادين، يريد لنفسه منه خيرا، و يقاوم به شرا قد ذاع بين الناس، أو مبدأ تبناه خلفاء بنى‌أمية، و يذكر الجمهور بتعاليم الاسلام التى كادت تضيع بين تلك البدع الجاهلية. كان - كما قلنا - لا يرى القتال مجديا، و ذلك لضعف الوازع الدافع الى الجهاد فى سبيل الله، وقوة الوازع الدافع الى اجابة مطالب النفس، و لذلك كان ينهى أهل خراسان و غيرهم عن القتال حينما كانوا يشكون اليه المظالم التى ينزلها بهم حكام بنى‌أمية، و مع ذلك كان يرى أن احياء مبادى الاسلام بالقدوة الحسنة، و الجهر بالسنن و الآداب الاسلامية فى مواجهة الانحراف عنها قوة لا تقل بلاغة عن السيف كان - يرتاد مجلس عبدالله بن عباس كثيرا للافادة من علمه، و كان ابن‌عباس يحبه حبا شديدا، و يروى اسحق بن الغيرار بن حريث: أنه كان عند ابن‌عباس، فجاء على بن الحسين، فقال له ابن‌عباس: «مرحبا بالحبيب ابن‌الحبيب». و ليس فى مجالسته لابن‌عباس غرابة، فهو هاشمى له مكانته فى العلم، و مقامه بين الصحابة، و منزلته من رسول الله صلى الله عليه و سلم، ولكن الغريب الذى يستحق الانتباه هو قصده الى مجالس الموالى و العلماء، و اصراره على اعلان سلوكه هذا مع هؤلاء العلماء، فما ذا كان هدف الامام من ذلك؟ كان الأمويون يحتقرون الموالى ولو كانوا علماء، و كانوا يسلكون معهم مسلكا مجافيا لظاهر أحكام الاسلام و لروحه معا، و كانوا يرغمونهم على الحرب رجالا و غيرهم من العرب يحاربون ركبانا، بل ان الحجاج قد اقتضى الجزية من مسلمى الموالى بعد اسلامهم، و كان الجهل قد بدأ يسيطر على الخلفاء و على أبنائهم، حتى لقد روى الشعرانى و غيره: أن سليمان بن عبدالملك جلس الى عطاء و كتب عنه المناسك ثم التفت الى بنيه و قال لهم: «تعلموا العلم، فانى لا أنسى ذلنا بين يدى هذا العبد الأسود». و من المصادقات الغريبة أن كبار العلماء فى ذلك العصر كانوا من المولى: كالحسن البصرى، و طاووس، و سعيد ابن‌جبير، و غيرهم. و كان السلوك الأموى ازاء العلماء من غير العرب شائنا، اذ كان يهدد باندثار العلم، ويؤثر الأرستقراطية على شرف العلم، و يفرق بين أبناء الدين الواحد، و يبعث [صفحه ۴۵] العنصرية من مكمنها: حتى تحولت فيما بعد الى شعوبية كان لها آثار سيئة على بناء الدولة و وحدتها. لذلك كان الامام يرى: أن قدر الانسان فى علمه و سلوكه، مولى كان أم‌حرا، قرشيا كان أو فارسيا، فالاسلام هو الأصل الذى محى الفوارق العنصرية، و قبر الأرستقراطية المادية، و علا على كل القيم الجاهلية و غير الجاهلية التى لم يقرها قانون السماء. و نفذ الامام السجاد ما آمن به، و جلس الى غير العرب من العلماء متعلما و مستفيدا، و قصد من ذلك فوق احياء أصل اسلامى هام هو المساواة بين الجميع فى الحقوق، و اعتبار العلم و التقوى مقياسا للفضيل دون سواهما، قصد الى جانب ذلك أن يصفع الشيعة الذين كانوا يرتفعون بالأئمة فوق المستوى البشرى، و يرون أنهم مصدر العلم، و العلم كله امداد منهم و فيض، و تلك فرية أشد ضررا على

الاسلام من التفرقة العنصرية، اذ أنها تفتح بابا للغرائب و العجائب و الأساطير التى تنسب الى الأئمة فى مجال العلم و المعرفة. و كان هناك اعتراض على الامام السجاد من الخلفاء و عمالهم، و من الناس بوجه عام فى مجالسته للعلماء من الموالى، و الاستماع اليهم، ولكنه لم يأبه لتلك الاعتراضات، بل أخذ يرد عليها بما يعيد المعترضين الى الصواب من أصول الاسلام و آدابه. لامه نافع بن جبير كما يروى أبونعيم فقال له: غفر الله لك، أنت سيد الناس و أفضلهم، تجلس الى هذا العبد فتجلس معه؟ يعنى زيد بن أسلم، فقال الامام: «ان هذا العلم ينبغى أن يتبع حيث كان». و كان يبدو من سلوك الامام هنا ما يشبه التحدى، و يروى محمد بن عبدالرحمن المدينى فى ذلك: أنه كان يتخطى حلق قومه حتى يأت زيد أسلم فيجلس معه، ثم يقول للناس: «انما يجلس الرجل الى من ينفعه فى دينه». و كان يجلس الى مولى عمر بن الخطاب فقال له رجل قرشى: تدع قريشا و تجلس الى عبد بنى عدى؟ فقال الامام: «انما يجلس الرجل حيث ينتفع». و بهذا السلوك الاسلامى الأصيل استطاع الامام أن يرتفع بالعلماء الى أماكنهم التى أقرها لهم الاسلام، كما استطاع أن يحتفظ بتراث هؤلاء العلماء بعد ما كادت عنصرية بنى‌أمية أن تقضى عليه، و تقضى على الكثير من آداب الاسلام معه. و من يدرى ماذا كان يحدث لو لم يفعل الامام ما فعل؟ أليس من الجائز أن يكون [صفحه ۴۶] الاسلام هو ما يقرره الجهلاء من مبادىء تخدم أهواءهم بعد أن تنجح الدعاية و وسائل الاعلام الأموية فى احتقار مصادر العلم غير العربية، بل و غير القرشية، ثم غير الأموية ان وجدت سبيلا خاليا من العوائق لنشر تلك الدعوة الخبيثة؟ بل ان هذا هو الذى يؤكده واقع بنى‌أمية، و تصرخ به عواطفهم، ولكن زين‌العابدين استطاع بالحكمة أن يوقف هذا التيار المدمر، و أن يجعل من نفسه درسا لغيره من الطلاب يردد على مدى العصور: ان العلم يجب أن يتتبع حيث كان مصدره، دون نظر الى عربى أو غير عربى، فالعنصرية مخالفة للاسلام ولو كان هوى الخلفاء معلقا بها، فالاسلام يحكم الخلفاء، و ليس لخليفة أن يحكم الاسلام. و فى المجال الشيعى روى الأعمش عن مسعود بن مالك قال: قال لى على بن الحسين: أتستطيع أن تجمعنى على سعيد بن جبير؟ فقلت: ما تصنع به؟ فقال: أريد أن أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها و لا ننقصه، انه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء، و أشار بيده الى العراق. بل لقد كان رضى الله عنه يفعل أحيانا ما يفعل الطالب البادىء، فيسعى الى العلماء، و يجلس كما يجلس الطالب، و ينتظر حتى ينتهى الشيخ من شأنه، يريد بذلك أن يضرب المثل الأعلى فى الأدب بين يدى العلماء. روى ابن‌سعد أن الامام زين‌العابدين جاء الى عبيدالله بن عتبة بن مسعود يسأله عن بعض الشىء، و أصحابه عنده و هو يصلى، فلما قضى صلاته أقبل عليهم فقال له أصحابه: ابن بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم جاءك لسألك عن بعض الشىء، فلو أقبلت عليه فقضيت حاجته ثم أقبلت عليما أنت فيه؟ فقال: أيهات، لابد لمن طلب هذا الأمر أن يتعتى. و تلك ثمرة من ثمرات جهد الامام فيرفع معنويات علماء العصر، فعبيدالله يعلم كغيره من العلماء أن زين‌العابدين له من العلم ما ليس لهم، ولكنه قد يحتاج اليهم فى رواية السنة بعض الحاجة، ولو أنه بعث الى أحدهم لجاءه يسعى اعترافا بفضله، و عرفانا لقدرة، ولكنه كان حريصا كل الحرص على الاحتفاظ باحترام العلماء و مكانتهم بين الناس حتى لا يمتهن العلم بامتهان العلماء. و كان الامام زين‌العابدين حريصا كل الحرص على رعاية طقوس معينة لمجالس العلم قوامها و مرجعها السنة التى وردت عن النبى صلى الله عليه و سلم، و هدفها التماس بركة المجلس و حسن [صفحه ۴۷] التوفيق للافادة، و احياء للقرآن، و تأكيدا لحاجة الانسان و فقره الى الله أن يرزقه العلم و العمل. قال يزيد بن حازم: رأيت على بن الحسين و سليمان بن يسار يجلسان بين القبر و المنبر يتحدثان الى ارتفاع الضحى و يتذاكران، فاذا أراد أن يقوما قرأ عليهم عبدالله بن أبى‌سلمة سورة، فاذا فرغ دعوالله. و تلك سنة من سنن رسول الله صلى الله عليه و سلم تؤكد وجوب ذكر الله عند بداية المجلس و فى نهايته، أما القرآن فهو الذكر الحكيم فليس فى قراءته عند انتهاء المجلس بدعة. [صفحه ۴۸]

مكانه السياسى

مكان أى زعيم فى السياسة يرتبط بمقامه فى مجتمعه لا يريم عنه، مضافا الى موهبته السياسية التى تهدف الى قيادة الشعب نحو السلام

و الأمن و الحق و العدل. فاذا كان للرجل دربة فى القيادة، و ايمان بالعدل، و رغبة فى سيادته، و ليس له مقام اجتماعى يجمع اليه القلوب، أو كان له حب و اجلال فى القلوب، و لم تكن له دربة فى السياسة، و لا رغبة فى سيادة الحق و العدل، فليس مؤهلا لمكان سياسى مرموق، و لا- هو صالح فى واقع الأمر لولاية أمور الناس. أما مقام زين‌العابدين فى المجتمع العربى كله فهو واضح من قول الجاحظ - و هو عثمانى النزعة -: «لم أر الخارجى فى أمره الا كالشيعى، و لا العامى الا كالخاصى». و هو شهادة حق من عثمانى كان يصح أن ينقم على الامام شيئا، لولا أن الامام كان على خلائق الشرف التى لا يجد فيها عدوه مغمزا و لا فرصة لتشهير و لا لتشويه. بل ان شاعرا كالفرزدق باعتباره متكسبا بشعره و مدائحه و أهاجيه على السواء عرض نفسه لأوخم العواقب حينما وجد تهاونا فى حق الامام من جانب هشام بن عبدالملك قبل أن يلى الخلافة فى واقعة طريفة يحسن أن نسوقها. فقد حج هشام، فاجتهد أن يستلم الحجر الأسود فلم يستطع حتى نصب له منبر، فاستلم الحجر و جلس عليه. و اجتمع الناس حوله، فجاء على زين‌العابدين، فتفرق الناس عن هشام، و وقفوا للامام و تنحوا حتى استلم الحجر، فقال له أهل الشام (نفاقا له): من هذا؟ فقال: لا أعرفه، فقال الفرزدق: لكنى أعرفه، هذا على بن الحسين. ثم أنشد قصيدة طويلة نختار منها: هذا الذى تعرف البطحاء وطأته و البيت يعرفه و الحل و الحرم هذا ابن‌خير عبدالله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم اذ رأته قريش قال قائلها الى مكارم هذا ينتهى الكرم ينمى الى ذروة العز التى قصرت عن نيلها عرب الاسلام و العجم يكاد يمسكه عرفان راحته عند الحطيم اذا ما جاء يستلم [صفحه ۴۹] يفضى حياء و يفضى من مهابته فلا يكلمه الا حين يبتسم بكفة خيزران ريحها عبق من كف أروع فى عرنينه شمم ينجاب نور الهدى من نور رغرته كالشمس ينجاب عن اشراقها الغيم ان عد أهل التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم هذا ابن‌فاطمة ان كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا من جده و ان فضل الأنبياء له و فضل أمته و أنت لها الأمم من معشر حبهم دين و يفضهم كفر و قربهم منجى و معتصم يستدفع السوء و البلوى بحبهم و يستزاد به الاحسان و النعم مقدم بعد ذكر الله ذكرهم فى كل حكم و مختوم به الكلم و ليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت و العجم فغضب هشام، و أمر بحبس الفرزدق بعسفان بين مكة و المدينة، فلما بلغ على بن الحسين ذلك بعث الى الفرزدق باثنى عشر ألف درهم، فلم يقبلها و قال: انما قلت ما قلت لله عزوجل، و نصرة للحق، و قياما بحق رسول الله صلى الله عليه و سلم، فأرسل اليه يقول: قد علم الله صدق نيتك فى ذلك، و أقسمت بالله عليك لتقبلنها. فتقبلها ثم جعل يهجو هشاما، و كان مما قال فيه: أيحبسنى بين المدينة و التى اليها قلوب الناس يهوى حنينها يقلب رأسا لم يكن رأس سيد و عينين حولاوين باد عيوبها و حتى الأمويون أنفسهم كانوا يحسون حاجتهم الى رأيه، فيروى ابن‌كثير: أن عبدالملك بن مروان استقدمه الى الشام فاستشاره فى جواب ملك الروم عن بعض ما كتب اليه فيه من أمر السكة، و طراز القراطيس. و لم تكن الجائزة التى بعث بها الامام الى الفرزدق من تلك الجوائز التى يرصدها السياسيون استغلالا لمواقع التأييد الشعبية، بل كانت بمثابة التعويض عما لحق الفرزدق من خسائر و ما ينتظره من أخطار محتملة لاقدامه على تلك المواجهة الخطيرة لولى العهد، فليس من خلائق الامام استغلال مواقع التأييد، و ليس من خلائقه العمل على تكوين خلايا مؤيدة له، بل لم يكن من آماله أن يتولى الحكم، فلا تشهد واقعة من [صفحه ۵۰] حياته بأنه كان يسعى الى الزعامة و ان سعت اليه فى كثير من الأحوال. كان يؤيد الحق و يسعى اليه، و يجهد نفسه فى سبيل تأصيله بالقدوة الحسنة و ان جار على مؤيدين من الشيعة أو صدمهم فى عقائدهم، و كان يقاوم الباطل فى مختلف صوره و ان كان صادرا من أشد الناس فدائية لآل البيت، و بهذا وحده كان مؤهلا للزعامة السياسية، متسما بسمات الزعيم الذى تخلد مبادئه من حيث يتصرم أمر خصومه تحت تأثير الحق الذى تبناه مدى حياته. لم يكن يحرص على جمع الأنصار المبطلين كما يحرص محترفوا السياسة فى أنحاء العالم الحديث، و فى ربوع دولة الاسلام فى عصرة، و آية ذلك أن الشيعة كانوا يتكاثرون متأثرين بالسرية التى أضفوها على مذهبهم، و بالأساطير التى نسبوها الى الأئمة حتى أغروا الناس بالاجتماع عليهم، ولكن الامام أعلن نفوره منهم حين قال: «ما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا». و كانت حركة المختار الثقفى حركة فدائية يمكن استقلالها و تعديل منهجها للتخذ طريقها الى النجاح، و كان المختار نفسه يرغب فى زعامة الامام السجاد حيث خذله ابن‌الحنفية هو الآخر بعدم تأييده فى آرائه الأسطورية، و قد أرسل المختار

الى زين‌العابـدين مائـة ألف دينار فأبى أن يقبلها، لأنه أدرك أنها محاولـة لتأليف قلبه نحوه، و لقد أعلن الامام السـبب فى عدم تأييده للمختار حينما وقف على باب الكعبـة؟ و لعن المختار بعـد قتله، فقال له رجل: تلعنه - جعلنى الله فداك - و انما ذبح فيكم؟ فقال: «انه كان كذابا يكذب على الله و رسوله». كانت دعوة المختار الممثلة فى شـعاره الظاهر: «يالثارات الحسين»، حكا يغلفه الباطل الممثل فى دعوى النبوة، و يحـدده الأمل الشخصـى، و الوصولية الرخيصة، و كان يتذرع بعض الحق وسائل الاعداد، من مثل رد اعتبار الموالى، و جعلهم قوام جيشه، ولكن الباطل فى الهدف يعكر الحق فى الوسائل، و الامام لا يريد الا الحق الشامل البرىء عن الهدف الشخصـى، و الأطماع الفرديـة، الحق الـذى يبـدأ من الاسـلام، و ينتهى اليه، فلا شـىء يعنيه الا الاسـلام وحـده. و لم يكن الامام من ذلك النوع من الزعماء الذين تجوز عليهم حيل الطامعين، و ألاعيب السـياسة التى تشـبه الى حد كبير ألا عيب الدبلوماسية الحديثة، فهو صاحب ذكاء ألمعى موروث عن جده على و عن أبيه الحسين، و عن خلاصة البشر جده الأعلى [صـفحه ۵۱] صـلوات الله و سلامه عليه. و هو من طراز «دسـتورى» فريـد بين عواصف الفتن الـتى شـملت عصـره، و اجتـاحت بين زوابعهـا كثيرا من العلمـاء و رجـال الفكر، ولكنه بقى دسـتوريا قويـا لاـ يفرط فى أقل مواد دسـتوره و دسـتور الأمـة شأنا فى أنظار الناس، و من هنا كما قلنا زعيما بفطرته و ان لم يكن على كرسى الخلافة المدخول. و ما من واقعة فى حياة الامام الا و هى تعلن مواهبه السياسية النادرة فى المجال الدستورى، كما تعلن زعامته الكامنة فى أغوار شخصـيته فلا تستطيع العواصف أن تنال من جوهرها و لا نقائها قليلا و لا كثيرا. كان سلوك الأمويين نحو أهل‌بيته و نحو أبيه يغرى من ليس على شاكلته من قوة الايمان بالدسـتور باسـتغلال أى فرصة و أى بادرة و أى موقف يزعزع من سلطان خصمه، و يصـعد به الى الخلافة حتى يأخذ الثأر لنفسه و لأهل‌بيته، ولكنه لم يفعل لأن الدسـتور لا يقول بالخروج على الحكام بالسيف. و كان هنـاك بعض مواقف شـعبية عانى منها فى نفسه، ولو أنها أصابت غيره لأغرى باذلال هـذا الشـعب انتقاما لنفسه، ولكن مصـدر الالتزام عنـده هو: الله، و الحق، و ليس فى شـرعة الله و لا فى شـرعة الحق انتصار للنفس، بل ان المواه و المدارك و الجهود كلها فى الدسـتور الالهى الذى دان به يجب أن توجه نحو نصـرة الله ممثلة فى نصـرة دين الحق. و هذا هو سـر شخصية الامام فى ميدان الزعامة الدينية و السياسية معا. لقد كان مثل المؤيدين لبنى‌أمية مثل الكلاب المسعورة يغريها أصحابها بالعبث ببعض الناس لمجرد التسلية، فتتجاوز هذا النطاق الى التمزيق و النهش ارضاء لساسـتها. و كان مثل الامام و المتعقلين ممن حوله كالأسود تكبح جماح نفسـها فلا تعرض للهزيل و لا تزاحم الكلاب على فرائسـها. لقـد كان الامام زين‌العابـدين مع أبيه فى المعركـة، ولكنه كان مريضا نائما، فلما قتل الامام الحسـين قال شـمر بن ذى الجوش: اقتلوا هذا. فقال رجل من أصـحابه: سبحان الله اتقتلون رجلا مريضا فتى حدثا لم يقاتل؟ و جاء عمر بن سعد فقال: لا تعرضوا لهـذا و لا لهؤلاء النسوة. و ثار الجـدل حول مصـير زين‌العابـدين، و مصـير سـيدات آل البيت و أوانسه، و لنـدع الامام نفسه يروى ما حدث له آنذاك كما أثبته ابن‌سـعد لندرك المدى البعيد الذى [صفحه ۵۲] وصلت اليه شخصيته من المتانة و القوة و عـدم تـأثير الباطـل فى نفسه بـالجور على الحق انتصارا لها كما يفعل الكثيرون من أبطال السـياسة المعـدودين فى التاريـخ. قال الامام: «فقبلنى رجل منهم، و أكرم نزلى، و اختصـنى، و جعل يبكى كلما خرج و دخل، حتى كنت أقول: ان يكن عنـد أحد من الناس خير و وفاء فعنـد هـذا الرجل. الى أن نادى منادى ابن‌زياد: ألا من وجـد على بن الحسين فليأت به، فقد جعلنا فيه ثلاثمائة درهم. قال: فدخل والله على و هو يبكى، و جعل يربط يـدى الى عنقى و هو يقول: أخاف، فأخرجنى والله اليهم مربوطا حتى دفعنى اليهم، و أخذ ثلاثمائة درهم و أنا أنظر اليها. فأخـذت و أدخلت على ابن‌زياد، فقال، ما اسـمك؟ قلت: كان لى أخ يقال له على أكبر منى قتلته الناس قال: بل الله قتله. قلت: «الله يتوفى الأنفس حين موتها». فأمر ابن‌زياد بقتله. فصاحت زينب بنت على: يا بن زياد حسـبك من دمأننا، أسألك بالله ان قتلته أن تقتلنى معه. فتركه. فلما أتى يزيد بن معاوية بثقل الحسـين بن على و من بقى من أهله فأدخلوه عليه قام رجل من أهل الشام فقال: ان سباءهم حلال لنا. فقال على بن الحسين: كـذبت ولؤمت، ما ذاك لك الا أن تخرج من ملتنا، و تأتى بدين غير ديننا. فأطرق يزيد مليا ثم قال للشامى: اسـكت، و قال لعلى بن الحسين: ان أردت أن تقيم عندنا فنصل رحمك، و نعرف لك حقك، و ان أحببت أن أردك الى بلادك و أصـلك، فقال: بل تردنى الى بلادى. فرده. أما الذهبى فى تاريخ الاسلام فيستعصى الصور الأليمة فى المأساة

فیقول: جاء مخفر بن ثعلبة العائذی برأس الحسین الی یزید و قال: جئتک برأس أحمق الناس و ألأمهم، فقال یزید: ما ولدت أم‌مخفر أحمق و لاـ ألام، ولکن الرجل لم یقرأ کتاب الله: «تؤتی الملک من تشاء، و تنزع الملک ممن تشاء». و هی قولة لئیمة من یزید فیها توریة واضحة، و تأبین علی رأی مخفر بن ثعلبة من طرف خفی، و لیس ذلک ببعید علی مثله ممن فسق عن دین الله علی الصور المرویة عنه فی التاریخ. و یسوق الذهبی روایة أخری یقول فیها: ان یزید أخذ یعبث فی رأس الحسین رضی [صفحه ۵۳] الله عنه بقضیب من حدید فی یده، ثم بکی و قال: نقلق هاما من رجال أحبة علینا و هم کانوا أعق و أظما أما والله لو کنت صاحبک ما قتلتک. فقال علی بن الحسین: لیس هکذا. قال: فکیف یابن أم؟ قال: «ما أصاب من مصیبة فی الأرض و لا فی السماء الا فی کتاب من قبل أن نبرأها». و کان عنده عبدالرحمن بن الحکم، أخو مروان بن الحکم فقال: لهام بجنب الطف أدنی قرابة من ابن‌زیاد العبد ذی النسب الوغل سمیة أمسی نسلها عدد الحصی و بنت رسول الله لیس لها نسل فضرب یزید صدره و قال: اسکت. تلک وقائع المأساة التی عاشها الامام السجاد زین‌العابدین و هو شاب لم یتجاوز الثالثة و العشرین من العمر، و هی فترة من الحیاة تزخر عادة بالآمال و الطموح، و حب الزعامة، و الاندفاع نحو الثأر، و الجزاء بأکثر من الذنب، ولکن فی غیر سلیل بیت النبوة المجمع علی فضله و تقواه و تفانیه فی الاسلام، و الزعامة الاجتماعیة القائمة علی الدستور وحده. و فی الجانب الأموی المقابل یصرخ «ازدواج الفکر» معلنا عن نفسه فی صراحة لا مواربة فیها. فالرجل الذی آوی الامام فی بیته حرصا علی حیاته انما کان یحدوه الطمع فی الجعل الذی کان من المؤکد اعلانه لمن یدل علیه أو یأتی به، و لا زالت فی نفسه بقیة من أسی علی ما حل بآل البیت، و لذلک کان تصرفه مزدوجا بین الأسی و بین الفرح. الأسی علی ما حل أعز الناس،و ألصقهم برسول الله صلی الله علیه و سلم، و الفرح بالمال المواتی فی عصر کان یقاس فیه الرجال بالجاه و المال. و کان ازدواج الفکر یصرخ کذلک بین جند بنی‌أمیة فمثلا فی الخلاف حول مصیر الامام، کما صرخ مرة أخری فی رغبة بعض المسلمین فی استحلال بنات النبی صلی الله علیه و سلم کأسری حرب، و صرخ مرة ثالثة فی رأس الدولة یزید بن معاویة ممثلا فی بکائه، و فی عبثه فی رأس أحب الناس الی النبی صلی الله علیه و سلم بقضیب من حدید. ولکن الامام کان بریئا طاهرا من هذا المرض العقلی المقیت و هو: ازدواج الفکر». فقد کان فی کل تصرفاته ازاء المأساة یلتزم بالقرآن و بدستور الله، و یتخذ منه الحاکم الأول علی قوله و فعله، و لم تتوزعه الأهواء و الأفکار السوداء من جهته، و الاسلام من [صفحه ۵۴] جهة أخری کما کان علیه خصومه الأمویون. فماذا کان موقفه اذن؟ کان أول ما أعلنه علی هدی من مصدر الالتزام الذی یدین به: عدم تشجیع الخروج بالسیف، و کان یصد کل من تساورهم نفوسهم أن یثوروا بالسیف، و یروی ابن‌سعد أن قوما من أهل خراسان جاءوه فشکوا الیه ظلم و لا تهم، فأمرهم بالصبر و قال لهم: «انی أقول لکم کما قال عیسی بن مریم: (ان تعذبهم فانهم عبادک و ان تغفر لهم فانک أنت العزیز الحکیم (۱۱۸))[المائدة: ۱۱۸] و نفس مصدر الالزام الالهی هو الذی دعاه الی الصلاة خلف أئمة بنی الا أمیة، و یقول ابنه أبوجعفر: «انا لنصلی خلفهم بغیر تقیة، و أشهد علی علی بن الحسین أنه کان یصلی خلفهم فی غیر تقیة». فلیست التقیة – و هی نوع من المداراة – هی التی دعت الامام الی الصلاة خلفهم، و مالها تکون تقیة و هی من قانون الاسلام و دستوره حفظا لوحدة الأمة، و نأیابها عن الفتن، و ایثارا للاصلاح عن طریق النصح و القدوة الحسنة المضادة للقدوة السیئة السائدة فی العصر. من أجل هذا ان یحث علی: الأمر بالمعروف و ینهی عن المنکر ما وجد السبیل الیه، و لا یبیح السکوت عن الأمر و النهی و العدول الی الانکار بالقلب الا عند الضرورة القصوی. و یعلن رأیه قائلا: «التارک للأمر بالمعروف و النهی عن المنکر کنا بذ کتاب الله وراء ظهره، الا أن یتقی منه تقاة. قیل: و ما تقاته؟ قال: «یخاف جبارا عنیدا أن یفرط علیه أو أن یطغی». و لقد نجحت سیاسة الامام نجاحا باهرا، اذ کان عدد کبیر من العلماء یفنون فی الأمر و النهی، حتی لقد تعرضوا للقتل و التشرید و الصلب، و کونوا خطرا حقیقیا علی حکم الظلم و الطغیان، و من أشهر هؤلاء العلماء بعد الامام: سفیان الثوری الذی أرق مضاجع الخلفاء بسلوکه الاسلامی الأصیل. کانت هناک فکرة شیعیة تقول بالرجعة، و تعنی بعث الامام القائم الذی یملأ الأرض عدلا کما ملئت جورا و ظلما من الموت، و تحقیق نصره علی الظلمة، ثم تفرقت السبل بالشیعة فیمن یکون هذا القائم المبعوث، و یبدو أن الأنظار کانت موجهة نحو الامام علی باعتباره رأس

العلويين، وفتى فريش و فارسها غير منازع. [صفحه ۵۵] و تلك فكرة تغرى أصحاب المطامع من الوصوليين بتشجيعها و تجميع الناس حولها، و اعدادهم لمعركة يفيد منها الطامع على أى صورة من صور الافادة: اما قضاء على الخصم المنافس، و اما تأريقا لمضجعه، و اقلاقا لسكينته، و كلاهما نصر على أى حال. ولكن الامام الذى لم يلتزم نحو نفسه بشىء، و وجه التزامه كله نحو الحق و العدل و الاسلام رفض هذه الفكرة و خيب آمال القائلين بها حينما جاءه رجل فسأله: متى يبعث الامام على؟ فقال: «يبعث يوم القيامة، و تهمه نفسه». و هكذا لم يكتف الامام بمقاومة فكرة الرجعة وحدها، بل انه قاوم فكرة التأليه التى كانت تغزو عقول الشيعة بقوله للسائل: و تهمه نفسه. لأن هناك فكرة تبناها الشيعة و برزت عند الاسماعيلية فيما بعد تقول: ان القائم هو الذى يتولى الثواب و العقاب يوم القيامة. من هذا المنطلق الاسلامى الأصيل الموحد الهدف و الوسيلة كانت عبقرية السجاد تلعب دورها البناء فى سياسة دولة الاسلام، اذ أمن الأمويون جانبه، و اطمأنوا الى براءته من أطماع الحكم، فتركوه لأن منهاجه لا يهدد عرش الأمويين فى زمنه على أى حال، بل وصلوه و أحبوه، و كان له من هذا الحب و الأمن وسيلة الى توسيع نطاق دعوته الاصلاحية، و اتصاله بأوساط شعبية و علمية لم تكرر تتهيأ له لو أنه شجع الباطل للوصول الى الحق. و مع هذه المسالمة النابعة أساسا من تعاليم الاسلام و قانونه الذى لا يعتريه الباطل، فلم يسكت عن الحق المهدر لآل البيت، لأنه اعتبر نفسه مسلما وجب عليه الدفاع عن آل بيت النبى صلى الله عليه و سلم كما أمر القرآن و أكدت السنة النبوية. روى ابن‌سعد عن المنهال بن عمر و قال: دخلت على على بن الحسين، فقلت له: كيف أصبحت أصلحك الله؟ قال: ما كنت أرى شيخا من أهل المصر مثلك لا يدرى كيف أصبحنا، فأما اذ لم تدر أو تعلم فسأخبرك: أصبحنا فى قومنا بمنزلة بنى‌اسرائيل فى آل فرعون، يذبحون أبناءهم، و يستحيون نساءهم، و أصبح شيخنا و سيدنا (يعنى الامام عليا) يتقرب الى عدونا بشتمه أو سبه على المنابر، و أصبحت قريش تعد أن لها الفضل على العرب لأن محمدا صلى الله عليه و سلم منها، لا يعد لها فضل الا به، و أصبحت العرب مقرة لهم بذلك، و أصبحت العرب تعد لها الفضل على العجم، لأن محمدا صلى الله عليه و سلم منها، لا يعد لها فضل الا به، و أصبحت العجم [صفحه ۵۶] مقرة لهم بذلك. فلئن كانت العرب صدقت أن لها الفضل على العجم، و صدقت قريش أن لها الفضل على العرب، لأن محمدا صلى الله عليه و سلم منها، فان لنا - أهل‌البيت - الفضل على قريش، لأن محمدا صلى الله عليه و سلم منا. فأصبحوا يأخذون بحقنا، و لا يعرفون لنا حقا، فهكذا أصبحنا، ان لم تدر كيف أصبحنا». قال: فظننت أنه أراد أن يسمع من فى البيت. هو منطق الحق و العدل، و منطق الدستور على أى حال، و ان كانت العائدة من هذا المنطق السوى تعود على آل البيت، و على الامام السجاد نفسه لأنه منهم، فالله تعالى يقول أمرا لنبيه أن يبلغ أمته: (قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى)[الشورى: ۲۳] و النبى صلى الله عليه و سلم يقول: «أحبوا آل بيتى لحبى». و لا خير فى أمة تهدر حقوق آل بيت نبيها، بل هو شر سرعان ما يتطور الى اهدار حق النبى نفسه، و من ثم يهدر حق الدين و دستور القرآن. فالمسألة هى الاسلام أولا و أخيرا، و ان بدت فى ظاهر النظر خاصة بأهل‌البيت النبوى أنفسهم. و الامام يشير فى قوله هذا الى أساس الظلم الذى قام عليه حكم بنى‌أمية، و هو: استغلال حقوق الغير، و عدم الوفاء بحق هذا الغير الذى استغلوه. أى: انه الغدر و الخداع الذى تقوم عليه أصول الحكم الأموى ممثلا فى التعصب للجنس العربى باعتباره نبع النبوة، و التعصب لقريش باعتبارها الأم التى تفرع عنها نبى الله صلى الله عليه و سلم، فاذا كان النبى صلى الله عليه و سلم هو مصدر شرفهم بأين حقوق أبنائه و ذريته، و هل فى شريعة الحق أن يذبح أبناؤه الذين يكونون جزءا رئيسيا من هذا الشرف الذى يدعيه بنوأمية لأنفسهم؟ كان الأمويون حقا يبطنون الغدر، و فى الوقت نفسه يستغلون الاسلام و رسوله فى سبيل الوصول الى مآربهم، و كان آل البيت فى مواقعهم الاسلامية الأصيلة لا يتحولون [صفحه ۵۷] عنها الى أى نوع من الوصولية و النفع الفردى. كانت فتنة ابن‌الزبير بمكة، و كان الامام يتخوفها و يتوجس منها شرا على الاسلام لا على نفسه، لأنها فى الظاهر تخدم مصالح آل البيت بمحاولته القضاء على بنى‌أمية. و قد علل الامام حزنه الذى كان يستبد به أيامها فى رواية رواها أبونعيم و ابن‌كثير و غيرهما، قالوا: انه كان حزينا يستند الى حائط فرآى رجلا عليه ثياب بيض فسأله عن سبب حزنه، أهو من أمر الرزق، أو من أمر الدنيا؟ فقال الامام: ما على هذا أحزن، انما أتخوف فتنة ابن‌الزبير. و لم يكن خوفه من فتنة ابن‌الزبير موجها نحو نفسه، و انما كان - كراية - موجها نحو

مصلحة الاسلام العليا. و قد كان ما تخوفه الامام فعلا، اذ ضربت الكعبة بالمجانيق و هدمت، و انتهك الحرم، و استحلت الكعبة و لم تحل لأحد الا ـ للبنى صلى الله عليه و سلم ساعة من نهار يوم الفتح دخل حرمها جيش الاسلام الفاتح للقضاء على الكفر، ثم حال عبدالملك بين المسلمين و بين الحج الى الكعبة أيام ابن‌الزبير، و شجع فكرة الحج الى قبة الصخرة فى بيت المقدس، الأمر الذى دعا الكثير من المفكرين الى القول بعداء الأمويين للاسلام و لرسوله، لأنه قضى على أرستقراطيتهم فى مكة، فحاولوا احياءها فى بيت المقدس البديل من الكعبة. بل ان المقدسى يروى فى كتابه «مثير الغرام» أن عبدالملك و كل بالصخرة خدما من اليهود أعفاهم هم و ذرياتهم من الضرائب المفروضة على أمثالهم، كما أنفق عليها نفقات باهظة، و خطب الناس يحرضهم على استبدالها بالكعبة بيت الله الحرام، و أول بيت وضع للناس مباركا فيه من رب العالمين. فهل بان لنا الآن كيف استغل الأمويون حقوق النبى صلى الله عليه و سلم على العرب فى بناء مطامعهم الشخصية، و أهدروا حقوق أبناء النبى صلى الله عليه و سلم، و بالغوا فيها حتى أهدروا حقوق الاسلام نفسه، و هدموا الدستور القرآنى فى فريضة تعتبر ركنا من أركان الاسلام قالوا فيها بأهوائهم خدمة لأهوائهم ذاتها؟ و كانت السياسة الأموية الملتوية على الصورة التى رسمناها تحاول جاهدة أن تحد من حب الناس لآل بيت النبى صلى الله عليه و سلم، و تسكت عن كل ما من يتناولونهم بالتجريح، ولكن سياسة الامام التى عرفنا أساسها الالتزامى كانت ترد هؤلاء الى الصواب فى سرعة و نجاح. روى ابن‌سعد: أن هشام بن اسماعيل كان يؤذى على بن الحسين و أهل‌بيته، [صفحه ۵۸] يخطب بذلك على المنبر، و ينال من على، فلما ولى الوليد عزله، و أمر به أن يوقف للناس. فكان يقول (أى هشام بن اسماعيل): لا والله ما كان أحد من الناس أهم الى من على بن حسين، كنت أقول: رجل صالح يسمع قوله. فوقف للناس، فجمع على بن الحسين ولده و قرابته، و نهاهم عن التعرض له، و غذا على بن الحسين مارا لحاجته فما عرض له، فناداه هشام بن اسماعيل: «الله أعلم حيث يجعل رسالته». و خرج يوما الى المسجد فسبه رجل، فانتدب الناس اليه، فقال: دعوه، ثم أقبل عليه و قال: «ما ستر الله عنك من عيوبنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها»؟ فاستحيى الرجل، فألقى اليه خميصة كانت عليه، و أمر له بألف درهم، فكان الرجل اذا رآه قال: «أنت من أولاد الأنبياء». و نال منه رجل يوما، فجعل يتغافل عنه، فقال الرجل: اياك أعنى. فقال: و عنك أغضى. و لئن كان الصفح عن المسىء مبدأ اسلاميا يفضل بكثير مبدأ القصاص المشروع، فان قصص الصفح التى تتصل بالناحية السياسية فى تاريخ الامام السجاد تشكل منهجا أكيدا هدفه تصحيح الأوضاع التى خلقتها أجهزة الاعلام الأموية بالنسبة للعلويين و آل بيت النبى صلى الله عليه و سلم خاصة. و رغم أن عبدالملك بن مروان كان يتحفز للقضاء على زين‌العابدين، و قد روى أبونعيم أنه حمله الى الشام مثقلا بالحديد، فقد نجحت سياسة الامام فى كبت غيظ عبدالملك، و انتزعت حبه له بعد أن اقتنع بأنه لا ـ يعمل لنفسه، و لا يرجو من وراء اتصاله بالناس مطمعا. و لقد كان الامام ذا منطق واع مقنع فى رد المنحرفين الى الصواب، يتخذ من الحب و الوئام وسيلة لتأليف القلوب، كما يتخذ من الشدة أحيانا وسيلة لنفس الهدف. روى أبونعيم أنه جاءه ناس من أهل العراق فقالوا فى أبى‌بكر و عمر و عثمان، فقال لهم: أنتم المهاجرون الأولون؟ قالوا: لا. قال: فأنتم الذين تبوأوا الدار و الايمان يقولون: ربنا اغفرلنا و لاخواننا الذين سبقونا بالايمان و لا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا؟ قالوا: لا. قال: أما أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هذين الفريقين.. اخرجوا فعل الله بكم. [صفحه ۵۹] بقى أن ننظر قليلا لنتعرف الى القيمة العملية للمنهج السياسى الذى سار عليه الامام السجاد. هو منهج المسالمة للعدو المسلم، و انكار الذات، و اعتبار مصلحة الاسلام، و الحق و العدل هى المصلحة العليا التى لا تعلوها مصلحة بالغة ما بلغت، و التضحية فى سبيل تهيئة المناخ الصالح لعودة الأخوة الى حالها و تلك بعينها هى سياسة النبى صلى الله عليه و سلم التى انتهجها فى صدر الاسلام الأول. و كان النبى صلى الله عليه و سلم يهدف منها الى الكشف عن وجه الاسلام الرحيم المتسامح، الذى يفسح الطريق أمام المواهب لتبرز الى ميدان العمل، فلا يطيح بها حقد أهوج، و لا تجنى عليها مطامع نفس جائرة، بل لقد كان هذا السلاح نفسه هو الذى هدم كبرياء أبى‌سفيان جد بنى‌أمية، و أدال من جبروتهم. كما أن تلك السياسة من الوجهة الاجتماعية تسل الأحقاد من الصدور مصداقا لقوله تعالى: (و لا تستوى الحسنة و لا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولى حميم (۳۴)[فصلت: ۳۴] و على المستوى الأعلى لسياية كانت القضية منذ الامام على

الى الامـام زين‌العابـدين و من بعـده هى قضـية الالـتزام فهل يعتبر المسـلم ملتزما نحو الاسـلام وحـده بقوانينه التى تنحصـر فى الحق و العـدل، أو من الجائز أن يعتبر الاسـلام مصدرا شـكليا للالتزام، بحيث يلتزم نحو بما يخدم مصالح الذات، و ينبذ منه ما يتعارض معها؟ أو بمعنى أوضح و أدق: هل يؤخذ الاسـلام كما جاء فى القران الكريم، و السـنة النبوية، و سلوك الراشدين المهديين دون تحوير و لا تأويل، أو يجوز فيه التطوير و التحويل حسب مقتضـيات العصـر الماديـة وحـدها؟ لقد تبنى العلويون و آل البيت النبوى الرأى الأول، و تبنى الأمويون الرأى الثانى. و الحق أن القول بالتحرير أو التطوير أو التجديد قول لا يجوز الا فيما جد بعد عصـر النبى صـلى الله عليه و سلم من شـئون لم تكن موجودة فى عهده من المعاملات و الفروع، و ليس خاصا بالأصول و لا متصلا بها. فالحلال و الحرام، و أصول الحكم، و المساواة بين شـعوب الاسـلام، و الوضوح، و التسامـح، و القـدوة الحسـنة، و اطراح البـدع، و غير ذلك من الأمور كل تلك شئون لا يجوز القول فيها [صـفحه ۶۰] بالرأى، و لا يجوز عليها التبـديل و التغيير و التجديد، لأنها الأصول الأولى التى يمكن للسياسـة الاسـلامية أن تسود على أساسـها، و التى يمكن أن تغزو قلوب غير القابلين للاسـلام بادىء النظر فلا يريـدون به بديلا، و التجديد فيها هـدم لوسائل انجاح الـدعوة فى أقطار أخرى، و عمل على انـدثار ما رسـخ فى القلوب من خلائق الصـدر الأول على مرور الزمن. و ما الاجتهاد المقرر فى الاسـلام الا فى وسـيلة التنفيذ، بشـرط مراعاة مصـلحة الاسـلام العليا أولا و قبل كل شـىء، أما اذا كانت المصـلحة الفردية أو القبلية هى هدف الاجتهاد فهذا غير جائز فى عرف الاسلام، و لا فى عرف المجتهدين من صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم. و لئن قال قائل كما اعتاد المحدثون أن يقولوا أحيانا: ان سياسة الامام على رضـى الله عنه لم تكن حكيمة لأنه أضاع الخلافة من يـده، بينما اسـتحكمت سـياسة معاويـة فبقيت الخلافة فى بيته قول مجاوز للصواب بعيد عن العمق و الشـمول. فلئن ضاعت الخلافة من يت الامـام على بسـبب بعض الاـجراءات التى رفضـها الامـام فلم يكن ذلـك عن جهـل بآثارهـا، بل كان الامام عليما بما يعمل، خبيرا بنتائج ما آثار على ما رفض من تسـلط، و استبداد بالرأى، و رشوة للجيش، و التواء فى الحديث، و تضليل للرأى العام. و كانت المسألة عنـده قضـية قوامها البناء و مقاومـة عن الهـدم، و خير للامام أن يخسـر معركـة الخلافـة و الاسـلام قائم، و قانونه لا يعتريه تحريف و لا تضليل، من أن يكسب معركة و يهدم أصلا من أصول سياسة الاسلام التى شرعت أصلا لغزو قلوب الملايين فى أرجاء العالم. و كيف يؤثر الامام ذاته على الاسـلام و دسـتوره، و هو ربيب النبى صـلى الله عليه و سـلم، و المتفرد بالعلم بين الصحابة، و مرجعهم الدستورى فى المعضلات؟ فخسران الامام لمعركة الخلافة احياء لمبدأ انكار الذات، و مبدأ انكار الذات، و الوضوح خير ألف مرة عند الامام من كسب معركـة سياسـية كان من الهين عليه كسـبها، ولكن آثارها السـيئة كانت من الخطورة بمكان. كان هناك اعتراف و تأكيـد لحق الذات من جانب بنى‌أمية، و كان هناك اسـتبداد بالرأى، و كانت هناك رشوة للجيش و للشـعب، و كان هناك تلويح بالشهوات لمن يريـد، و تلك هى البلبلـة بعينها، فلو أن الامام هو الآخر وافق على تلك السـياسة و نفـذها لنجح [صـفحه ۶۱] يقينا فى معركته، ولكن الدسـتور الاسـلامى كان سيفتقد تلك المواد الرئيسية و هى: الشورى و عدم الاستبداد، و القضاء على مبدأ الرشوة، و الوضوح و الحق. كما كان سـيفتقد القدوة الحسـنة المتبوعة فى سـلوك الصحابة الذين أعلن النبى صلى الله عليه و سلم وجوب الاهتداء بهم فى ظلمات الفتن، و مهام المشـكلات. و كان يمكن لأى انسان يأتى بعد الامام أن يلغى أى مادة من دسـتور الاسـلام محتجا بفعل على رضـى الله عنه باعتبار رأيه و رأى الصـحابة أصـلا من أصول الفقه الدسـتورى الاسلامى الحنيف. و تكون الفتنة العمياء التى يقول فيها كل دخيل برأيه الى أن يمحى جوهر الاسـلام، و يصـبح لونا من الفلسفة الفارغة لا جدوى منها. و كان الامام الحسين ثورة على اجتهاد الأمويين، و محاولـة للعودة بالمسـلمين الى الطراز الأـول من سـياسة الاسـلام. و كانت حكمـة بنى‌أميـة فى السـياسة – التى يزعمها كتاب العصـر الحـديث أحيانا – قـد وصـلت بالمسـلمين التابعين لهم، و الملتقين حولهم الى ما تخوفه الامام على رضـى الله عنه، و كانت لدى حماة السـياسة كما يزعم بعض المحدثين أجهزة اعلام تنشر كل ما يخدم مصالحهم ولو كان باطلا يروى من حديث رسول الله و كذبا عليه، أو تفسـيرا لآية من القران تزعم أجهزة الاعلام تلك أنها رأى فلان ممن مات من الصـحابة، و اضـطربت أفكار المسـلمين، و ازدوجت أفكارهم على النحو الـذى عرضـناه. و كان لابد من دم طاهر زكى شـريف نبيل يراق ظلما وعدوانا حتى يكون ذكرا دائما عبر العصور

لقضية السياسة الحقة للاسلام لا ينساه مسلم ما دام هناك ذكرى لقتل الحسين. و كان قتله و الظروف المحيطة به مثارا للفزع و الألم كما أراد الله ليبقى حزب المعارضة للباطل قويا بأنصاره أذكياء يتأثرون به، و يدركون أسراره مدى الأيام. ولو لم يقتل مولانا الحسين، ولو لم يستذل أبناؤه و أهل‌بيته على الصورة المروية فى التاريخ لما بقى جوهر الاسلام الى الآن، ولعدت عليه يد التأويل، و مفتريات الروايات الكاذبة، و لذلك كان الامام على زين‌العابدين بن الحسين يقول دائما. : «ما يسرنى أن لى بنصيبى من الذل حمر النعم». و ليس من المعقول مطلقا أن يرغب الامام السجاد فى الذل الا لله وحده، شأنه فى ذلك شأن أهل‌البيت، بل و شأن أقل العباد و الزهاد شأنا من غير آل البيت. ولكن الامام كما قلنا كان هادفا من كل كلمة و كل حركة و كل سكنة له فى حياته الى هدف سياسى قوامه الاسلام و الحق و العدل، و لم يكن مرتجلا فى أى سلوك سلكه [صفحه ۶۲] مدى حياته. ففى ذله المضروب عليه اثبات لشخصية الاسلام، و ذكرى لمن كان له قلب من بعده يواصل بها تحقيق شخصية الاسلام و يدفع الباطل، و ذل مع الحق و العدل و الاسلام هو ذل فى سبيل الله أولا أخيرا. و نعود فنقول: ان سياسة العلويين منذ الامام حتى زين‌العابدين هى تأسيس لحزب معارض للباطل ينمو و يتكاثر على الأيام، ولو أن الامام على أو الامام الحسين، أو الامام السجاد اصطنع و ما يشبه السياسة الحديثة فى عصرنا للوصول الى الحكم ولو بحجة أخذ الناس بالحق، و النأى بهم عن الباطل، فان هذا العمل الخطير لم يكن الا اتفاقا بين الأمويين و المعارضين للباطل من أهل‌البيت على الباطل، أو بمعنى أوضح: لم يكن - ان حدث - الا اتفاقا على الغاء مواد دستورية هامة من أصول سياسة الاسلام العليا، و هو ما لم يكن الامام و لا أبناؤه يوافقون عليه، مهما رماهم المفكرون المسلمون فيما يعدهم من الزمان بقصر الباع فى ميدان السياسة. و أخيرا نقول: ان ما حافظ أئمة آل البيت عليه، و ما آثروا الذل على التفريط فيه من أصول سياسة الاسلام هو ما ينادى به كثير من المخلصين الآن فى عصرنا الحاضر من اعادة النظر فى التاريخ، و العودة الى أصول الاسلام الأولى كوسيلة للخلاص من الذل المضروب على المسلمين من جراء القول بالرأى، و يأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره المجرمون. [صفحه ۶۳]

مكانه الاجتماعى

لقد بحثنا فى الفصل السابق مكانة الامام السياسية منفصلة عن مكانته الاجتماعية التى أشرنا اليها اشارة عابرة لنثبت أن جدارته فى المجال السياسى كانت تعتمد على ذكائه و وعيه الدينى الشامل، و شخصيته الفذة، فاذا ما أضفنا الى هذا مكانته الاجتماعية فقد تم أمره، و استحكمت شخصيته غاية الاستحكام فى مجال الزعامة التى تستند الى الشخصية أولا، ثم الى المكانة الاجتماعية، لأن العكس ينزل بالزعامة من درجتها الأولى الى المرتبة الثانية، لاعتمادها فى تلك الحالة على عوامل خارجة عن شخصية الانسان. هو فى نسبه كما قلنا يعتبر من جهة أدبيه أعرق أنساب الدنيا شرفا وجاها. و أما جده لأمه فهو «يزدجرد» أخر ملوك الفرس، و كان ليزدجرد ثلاث بنات سبين فى زمن عمر بن الخطاب، فكانت واحدة منهن لعبدالله بن عمر بن الخطاب، فولدت له «سالما»، و كانت الثانية لمحمد بن أبى‌بكر الصديق، فولدت له «القاسم»، و كانت الثالثة للامام الحسين بن على، فولدت له «علیا زين‌العابدين السجاد». فسالم بن عبدالله بن عمر، و القاسم بن محمد بن أبى‌بكر، و الامام السجاد له أبناء خالات. و الثلاثة من أعيان الفقهاء العلماء فى الصدر الأول، فتضافر مجدهم فى العلم مع مجدهم جميعا فى الأصل العريق، ولكن زين‌العابدين قد تفوق عليهما فى النسب من جهة الأب، و بوصلته القريبة برسول الله صلى الله عليه و سلم، و بأصالته فى بنى‌هاشم. و كما كان عزيزا بأصوله كان عزيزا بين العرب بأولاده. و قد تزوج الامام السجاد أم عبدالله بنت عمه الحسن بن على بن أبى‌طالب، فولدت له: الحسن، و الحسين الأكبر، و أباجعفر الفقيه، و عبدالله. و يقول الأصمعى: ان مروان بن الحكم قال له: لو اتخذت السرارى يكثر أولادك؟ فقال: ليس لى ما أتسرى به، فأقرضه مائة ألف، فاشترى السرارى و كثر نسله، ثم لما مرض مروان أوصى ألا يؤخذ منه شىء. و ولد له من احدى أمهات أولاده: زيد المقتول بالكوفة و امام الزيدية، و عمر، و على، و خديجة. [صفحه ۶۴] و من أخرى ولد له: حسين الأصغر، و أم‌على، و هى علية. و من أخرى: كلثم، و سليمان - و لا عقب له، و مليكة. و من رابعة: القاسم، و أم‌حسن (و هى حسنة) و أم‌الحسين، و فاطمة. و كان رضى الله عنه مهيبا أبيا

فى جمال و هيأة حسنة، و لباس فاخر، تتوجه السيادة الموروثة، و البهاء النبوى الوقور. و يقول شريك بن أبى‌بكر: انه كان يصبغ بالسواد، أما موسى بن حبيب الطائفى فيقول: انه كان يخضب بالحناء و الكتم و كلاهما وردت من السنة النبوية، اذ أوصى صلى الله عليه و سلم بالسواد، و قال: هو أحظى لكم عند نسائكم، و أهيب فى قلوب عدوكم. و قال عثمان بن حكيم: رأيت على على بن الحسين كساء خز وجبة خز. و قال ابنه أبوجعفر: كان لعلى بن الحسين سب سبنجونة من ثعالب، فكان يلبسها، فاذا أراد أن يصلى نزعها. و قال: أهديت لعلى بن الحسين مستقة من العراق، فكان يلبسها، فاذا أراد أن يصلى نزعها. و قال نصر بن أوس الطائفى: دخلت على على بن الحسين و عليه سحق ملحفة حمراء، و له جمة الى المنكب مفروق. و يقول يزيد بن حازم: رأيت على على بن الحسين طيلسانا كرديا غليظا، و خفين يمانيين غليظين. و يروى حسين بن زيد بن على عن عمه عمر بن على أن على بن الحسين كان يشترى كساء الخز بخمسين دينارا فيشتو فيه ثم يبيعه فيتصدق بثمنه، و يصيف فى ثوبين من ثياب مصر أشمونيين بدينار، و يلبس ما بين ذا و ذا من اللبوس، و يقول: «من حرم زينة الله التى أخرج لعباده و الطيبات من الرزق». و يعتم، و ينبذ له فى السعن فى العيدين بغير عسكر، و كان يدهن أو يتطيب بعد الغسل اذا أراد الاحرام. و قال سعيد بن أبى‌هند: رأيت على على بن الحسين قلنسوة بيضاء لاطئة. و قال محمد بن هلال: كان على بن الحسين يعتم و يرخى عمامته خلف ظهره شبرا أو فويقه. [صفحه ۶۵] و قال موسى بن أبى‌حبيب: رأيت نعل على بن الحسين مدورة ليس لها لسان. كان مظهره على هذا النحو من الجمال و الفخامة و السيادة الظاهرة و الباطنة، و لم يكن هذا المظهر الجميل اغراقا منه فى الترف، و انما كان مما تستر فيه على مذهب أهل الملامة من نسبة الزهد و التواضع اليه، كما كان يتظاهر بالبخل و هو منه بعيد. و الدليل على أنه كان يتستر بهذا اللباس الفاخر أنه كان اذا جن الليل حمل على ظهره جر الطعام الى الأرامل و المساكين، و ليست تلك خلائق المفرقين فى الأبهة و العظمة بأى حال. و ما تستر به انما هو مباح خالص لا شبهة فيه و لا مظنة شبهة. على أن الامام بحكم رئاسته لأهل‌البيت النبوى فى عصره كان لابد أن يظهر بمظهر لائق ببيت النبوة فى عصر سادت فيه الأبهة قصور الخلفاء، فكان لابد من الفارق بين أبهة المستكبرين و أبهة المتواضعين من ال البيت. و كان الامام رضى الله عنه يربط صلاته الاجتماعية بكل الطبقات المسلمة فى نطاق شريعة الاسلام و سنة النبى صلى الله عليه و سلم يرفع بسلوكه معنويات أهدرت فى عصره بعد أن أطلت الأرستقراطية مرة أخرى برأسها. و لقد زوج الامام ابنة له من مولاه، و أعتق جارية و تزوجها، فكتب اليه عبدالملك بن مروان يعيره بذلك، فكتب اليه: لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة. فقد أعتق رسول الله صلى الله عليه و سلم صفية و تزوجها، و أعتق زيد بن حارثة و زوجه ابنة عمته زينب بنت جحش. و كما كان حرصا على رفع معنويات المعتقين على هذه الصورة الكريمة كان حريصا على حفظ الصلات بين آل بيت النبى قوية سليمة من التقاطع و التدابر باعتباره الرجل المرموق فى البيت بعد أبيه و عمه. حدثت بينه و بين الحسن بن الحسن ابن‌عمه خصومة، و كانت بينهما مناقشة، فنال منه حسن و هو ساكت فلما كان الليل ذهب الامام اليه و قال: يابن عم، ان كنت صادقا يغفر الله لى، و ان كنت كاذبا يغفر الله لك، و سلام عليك، ثم رجع. فحلقة حسن فصالحه. و كانت صلاته تمتد حتى تشمل الخليفة نفسه، و كان الخليفة يحترمه و يبجله و يستجيب له، و لم يوص بأحد خيرا يوم وقعة الحرة الا بعلى بن الحسين، و كان لشدة حرصه على ترابط المجتمع، و الاحتفاظ بعلاقاته مع الجميع يصفح عن كل من أساء اليه، حتى روى ابن أبى‌الدنيا عن أبى‌حمزة الثمالى أنه كان اذا خرج قال: «اللهم انى [صفحه ۶۶] أتصدق اليوم - أو أهب عرضى اليوم - لمن استحله». و جماع مكانه الاجتماعى قول الجاحظ الذى ذكرناه آنفا: «لم أر الخارجى فيه الا كالشيعى، و لا الخاصى فيه الا كالعامى». أى انه كان محوا من الجميع بحيث لا يبطن انسان له عداوة، و مع ذلك فقد ان يسرع الى سل أحقاد المغرضين، و يحولهم الى أحبة بابتدائه لهم بالتحية و العطاء و الاسترضاء. [صفحه ۶۷]

الكريم الزهد

أما أن يكون زين‌العابدين كريما فهذا أمر لا غرابة فيه، فهو ابن‌الأكرمين كابرا عن كابر فى كرم آبائه أحد و أما أن يكون زاهدا فتلك

سمة الكريم، اذ لا يجتمع حرص و كرم فى قلب انسان. ولكن الذى نريد أن نحققه هنا هو التوفيق بين المظهر الجميل و اللباس الفاخر و بين خليقة الزهد. و تحقيق الزهد أنه: عدم الحرص، أو عدم انعقاد القلب على حب المال و وسائل الانتفاع الأخرى، دوام الاستعداد لبذلها فى مواضعها المشروعة دون تردد. هذا هو الزهد فى حقيقة معناه، فكم من غنى اجتمع له المال و الجاه و هو زاهد، و كم من فقير مملق و هو حريص شحيح غير زاهد، هذا هو الأصل، ولكن تباين العصور و اختلاف الأحوال فيها فتح للأئمة من العلماء با الاجتهاد فى صورة الزهد لا فى أصله الذى أوضحناه. كان الزهد فى عصر النبى صلى الله عليه و سلم: بساطة فى الحياة، و تقلل من وسائل الانتفاع، وعود الفائض على المحتاجين من الفقراء و المساكين، و مع ذلك قد كان بين الصحابة الزاهدين من يلبسون اللباس الجميل الفاخر و هم فى الحقيقة زهاد. و انسحب هذا المعنى على عصر الامام زين‌العابدين، ولكن الناس بدأ و الشجون و يحرصون و يعقدون قلوبهم على حب الدنيا، فاختار المعلمون أن يشمل الزهد ظاهر البدن فلا يكون عليه الا أدون اللباس كدلالة على التحقق بمعنى الزهد الباطن فى القلب، و حفظا لآداب الاسلام من الادعاء الكاذب. و كانت عودة الانسان من مظاهر الأبهة و الفخامة الى لباس الصوف أو غيره من اللباس الرخيص دليلا على حقيقة ما فى القلب من تخل عن حب الدنيا اذا اقترن ذلك كله بالبذل و العطاء. و لما استبد بالناس الطمع فى الدنيا، و مضى على ذلك زمن طويل، فسدت قلوبهم، و أصبح من العسير عليها أن تستعذب آداب الاسلام الا بعد مجاهدة عنيفة، ففضل المعلمون أن يبتكروا الطرق المختلفة للمجاهدة كالجوع و الايثار، و العمل مع العامة فى الحرف و الصناعات، و الخروج عن الأملاك، و السهر، الى غير ذلك من وسائل المجاهدة [صفحه ۶۸] المشروعة. و حتى آل البيت أنفسهم كانوا يجاهدون أنفسهم بين الحين و الحين فى مسألة المال للحفاظ على ملكة خلو القلب من حب الدنيا، فقد قاسم الامام الحسن ربه ماله ثلاث مرات، و قاسم زين‌العابدين ربه ماله مرتين و ما كان هذا الا تدريبا على تجربة النفس فى التخلى لئلا تأبى يوما من الأيام. و الزهد يشمل المال و الجاه و النفس، و لا يتحقق الا بهذه الأركان الثلاثة، فكم من زاهد فى المال غير زاهد فى الجاه و الرئاسة، و كم من زاهد فى المال و الرئاسة غير زاهد فى نفسه، بل يثور لها و يحمى أنفه ان نال منه أحد. و لقد رأينا أن الامام زين‌العابدين كان زاهدا فى الجاه، و نادى مرارا بأن الشيعة كذبوا فيما ينسبونه اليهم مما ليس فيهم، و قال مرارا: «نحن من صالحى قومنا، و كفانا أننا من صالحى قومنا». و قال: «ما أرضى أن يكون لى بنصيبى من الذل حمر النعم». و اعتذر للصغير و الكبير، و سعى الى العامة يغدق عليهم جزاء لما نالوه به من السوء. و كدليل على زهده زخرت سيرته بوقائع الكرم التى لا تكون الا لزاهد قد تخلى عن حب الدنيا فلم يشغله منها متاع، و لم يحرص منها على شىء. و كان عميق الفهم فقيه القلب فى كشف الأقنعة التى يتستر وراءها المحبون للدنيا العاقدون قلوبهم على حبها، فيقول: «انى لأستحى من الله عزوجل أن أرى الأخ من اخوانى فأسأل الله له الجنة، و أبخل عليه بالدنيا، فاذا كان يوم القيامة قيل لى: فاذا كانت الجنة بيدك كنت بها أبخل و أبخل و أبخل». و انما يعنى زين‌العابدين بهذا القول غيره ممن يبذلون الجنة لاخوانهم بالدعاء و الابتهال، و يبخلون بما هو أدنى و أدنى من الجنة من حطام الدنيا، فهم كاذبون فى دعواهم رجاء الجنة لاخوانهم، و آية كذبهم بخلهم بالدنيا. و من هذه النافذة التى فتحها الامام نستطيع أن نطل على دنيا الدعاوى الكاذبة فى العلاقات الاجتماعية بأسرها. فبذل الدنيا آية صدق النصح للمسلمين، و حب الخير لهم، و كراهة الشر أن يقع بهم، و من أجل الدلالة على ذلك كان زين‌العابدين يقدم دليل الحب بين يدى العطاء. فيروى أبونعيم: أنه كان اذا ناول الرجل الصدقة قبله ثم ناوله. فالقبلة تعبير عن الحب المتبادل بين المؤمن و المؤمن، و العطاء دليل الحب الذى لا يكذب، أما الدعاء دون عطاء، و أما رجاء الخير مع الامساك و الشح فهو كذب و نفاق فى القلب لم نجد من فكر فى [صفحه ۶۹] كشفه بهذا الميزان الدقيق قبل الامام زين‌العابدين. كانت مقاييس الناس قد اضطربت فى عصره، و لا زالت مضطربة الى عصرنا الحاضر، اذ كان يقاس الناس بما يحرزون من الدنيا، و على مقدار ما يحرز الانسان منها تكون منزلته. و هذا خطأ يوقع فى كبريات المشاكل، و يهدم الكثير من القيم، و يظلل الكثير من الناس فى حياتهم و معاملاتهم. و قد وضع الامام ميزانا لأقدار الرجال حينما سئل: أى الناس أعظم خطرا؟ فقال: «من لم ير الدنيا لنفسه قدرا». فهو لا يعنى أن أعظم الناس خطرا هو المجرد من الدنيا، ولكن أعظمهم خطرا هو الذى لا يبنى قدره و منزلته على أساسها، و من ثم فهو الباذل لها، و المؤثر

غيره بها، لأنه اذا لم يرها لنفسه قدرا جاء بها و انحلت قبضته عنها. و قد اعتبر الامام السخاء مقياسا للسيادة فى الدنيا اذا اقترن بالتقوى، فالسخى الفاجر جبار فى الأرض يذل غيره بعطائه، و يستغل حرماته جزاء لنواله، أما السخى التقى فهو أشد حياء فى حال الاعطاء من طالب النوال فى حال السؤال، و فى ذلك يقول الامام: «سادة الناس فى الدنيا الأسخياء الأتقياء، و فى الآخرة أهل الدين و أهل الفضل و العلم الأتقياء، لأن العلماء ورثة الأنبياء». و مما لا يحتاج الى بيان أنه ما أراد بالعلماء الا العاملين بالعلم الذين خالطت الخشية قلوبهم، و لم يرد بهم أولئك الجامعين للعلم الملمين بشوارده دون عمل، فالعالم التقى عامل، و لا سيد فى الآخرة غيره. و هو يعتبر البذل و العطاء عن كرم توبة من الذنب، وداعيا لغفرانه من الله تعالى، تصديقا لقوله فى كتابه الكريم: «ان الحسنات يذهبن السيئات». و لذلك كان يقول حينما كان يقاسم الله تعالى ماله: «ان الله يحب المؤمن التواب». و لم يكن يحتاج الى وقت للتفكير فيما يبذل أو فيما يكرم به اخوانه أو عبيده، بل كان سريع‌الاجابة و كأنه يلقى أذى ينفر منه و يزدريه. روى عبدالرزاق قال: سكبت جارية لعلى بن حسين ماء ليتوضأ، فسقط الابريق من يدها على وجهه فشجه، فقالت الجارية: و الكاظمين الغيظ. قال: كظمت غيظى. قالت: و العافين عن الناس. قال: عفوت عنك. قالت: ان الله يحب المحسنين. قال: أنت [صفحه ۷۰] حرة لوجه الله. و كان يشمل بعطائه أعيان العصر و أبناء الصحابة، و يتحمل عنهم ديونهم بالغة ما بلغت، فقد دخل على محمد بن أسامة ابن‌زيد فى مرضه، فجعل يبكى. فقال: ما شأنك؟ قال: على دين. قال: ما هو؟ قال: خمسة عشر ألفا قال: فهو على. و هذا دليل آخر على حرص الامام على مكان ابن‌أسامة بن زيد من الجنة بحيث لا يعكره الدين الذى لا يكفر الا بالشهادة، و دليل على دناءة شأن الدنيا عند الامام ببذله هذا القدر الهائل من المال عن أخيه المؤمن. و لم يكن يقبل أن يستغل منصبه فى المجتمع فى قبول عطايا الخليفة، فعطاؤه المقرر له بين أهل‌البيت وحده هو الذى كان يقبله دون من من الخلافة، فهو حق كسائر الحقوق، فاذا ما اقترض من الخليفة شيئا فانه كان يعده له ليرده مشكورا. قال عبدالله بن على بن الحسين: لما قتل الحسين قال مروان لأبى: ان أباك كان سألنى أربعة آلاف دينار فلم تكن حاضرة عندى، و هى اليوم عندى مستيسرة، فان أردت فخذها. فأخذها أبى، فلم يكلمه أحد من بنى‌مروان فيها حتى قام هشام فقال لأبى: ما فعل حقنا قبلكم؟ قال: موفر مشكور. قال: فهو لك. و قمة جوده و سخائه صنيعه الذى كان يصنع مع عامة الناس من أهل المدينة. قال ابن‌اسحاق: كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون، و لا من يعطيهم، فلما مات زين‌العابدين فقدوا ذلك، فعرفوا أنه هو الذى كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به. و لما مات وجدوا بظهره آثارا سوداء من أثر حمل جرب الطعام الى بيوت الأرامل و المساكين. و قالوا: انه كان يعول بهذه الطريقة مائة بيت فى المدينة. و كان حريصا على اخفاء صدقته على هذه الصورة فى جنح الظلام لهدف يراه و يؤمن به أوضحه فى قوله: «صدقة الليل (و فى رواية: السر) تطفىء غضب الرب، و تنور القبر، و تكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة». و قد تواترت الروايات و تعددت وجوهها فى صدقاته الليلية هذه. قال ابن‌عائشة: ما فقدت صدقة السر حتى مات على بن الحسين. [صفحه ۷۱] و روى الطبرانى عن عمر بن الحارث: لما مات على بن الحسين وجدوا بظهره آثارا سوداء، فقالوا: ما هذا؟ قالوا: كان يحمل جرب الدقيق بالليل يعطيها الفقراء. و لم يكن يخشى الفقر من كثرة العطاء و البذل، و انما كان يخشى الفقر من فضل الله عليه و موالاته اياه، و كان من دعائه فى ذلك: «اللهم ارزقنى موالاة من كثرت عليه رزقك بما وسعت عليه من فضلك». و كان لا يرى أخذ الأجر على العلم، و يعتبره من أبواب حب الدنيا، فيقول: «من كتم علما أو أخذ عليه أجرا أو رفدا فلا ينفعه أبدا». هذا منهاج الامام فى مسألة المال و الجاه، بذل و زهد و براءة من الحب و الحرص، فما أثر هذا المنهاج فى بناء المجتمع فى عصره و بعد عصره؟ و ما الأخطار التى تتهدد المجتمع من جراء اهماله؟ و القضية هى نفس القضية الرئيسية التى ثارت بين على رضى الله عنه و أهل‌بيته و بين بنى‌أمية، أى بين الامام على و معاوية بن أبى‌سفيان من حيث استعداد كل منهما لطبائع معينة تصلح فى أحدهما لزعامة دين، و تصلح فى الآخر لزعامة زمنية. فالامام و نبوه منذ حداثتهم زهاد لا يعقدون قلوبهم على حب الدنيا، و الامام هو الذى امتدحه الله تعالى فى كتابه الكريم على خليقة البذل و الايثار فقال تعالى: (و يطعمون الطعام على حبه مسكينا و يتيما و أسيرا (۸) انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء و لا شكورا (۹))[الانسان:۸، ۹]و على هذا ساربنوه من بعده، و بهذا أمر الاسلام، فكانوا أحق الناس و أصلحهم لزعامة دين

يسوس دولـة. و معاويـة مع كونه صـحابيا كان يميل بطبعه الى الجاه و الملك و العظمة، و الظهور بمظاهر الملوك المجاورين لجزيرة العرب، حتى لقـد كان يحاول أن يسـتصدر من عمر بن الخطاب رضـى الله عنه موافقـة على الظهور بمظهر الأبهـة فى مواجهة الروم، و كان يحتج لاقتراحه هذا بحجج حيرت الخليفة فقال له أخيرا: «لا أمرك و لا أنهاك». ورد الخليفة عمر رضـى الله عنه على معاوية على هذه الصورة ليس جهلا من عمر بما يصلح لسياسة الدولة فى الاسلام، و هو امام أهل الاجتهاد المكلم، الذى وافق القرآن الكريم على رأيه. فهو لا ينهى معاوية عن مسلكه باعتباره مسلكا يمكن أن يرقى بدولة الاسلام ولكن [صفحه ۷۲] مع وال لا يهيم بالأبهة و العظمة و لا يتعشـقهما، و لم يأمر معاويـة بتنفيـذ مقترحاته لأنه كبنى أمية كان هاويا للأبهة و العظمة و مظاهر الملك و السـلطان. و عمر نفسـه كان يرى العظمة و العزة فى الاسـلام نفسه، و لذلك لما زار جبهة القتال و كان عليها أبوعبيدة، شمر عمر عن ساقيه و خاض الماء الى القائـد، و لمـا لفت القائـدة نظره الى أن العـدو بازائه و لا يحسن أن يرى أمير دولـة الاسـلام يخوض الماء بقـدميه قال له: «دعنا منك، نحن قوم قد أعزنا الاسـلام». و على هذه السياسة مضى الامام على كرم الله وجهه، لا يرى عزا فى الاسلام، و لا جاها و لا سلطانا الا فى مخالفـة مـا كـان عليه ملوك الأمم فى عصـره، و اثيارا لتواضع و الزهـد و البـذل، على الكبرياء و جمع المال و الاسـتكثار منه. على أن الاسلام باعتباره ختام الرسالات السماوية، يحمل فى ثنايا أصوله أمرا صريحا بمواصلة القتال و الجهاد، و العمل على سيادته على العالم كله على مـدى العصور و الأزمان. و هـذه المهمـة الشاقة العظمى لابد أن تقترن بالوسائل التى تجعلها أمرا ميسورا يتسارع الناس اليه، و لا يساقون اليه سوق على كره. و كانت تلك الوسائل المقررة شرعا هى: ۱ - ضمان الكفاية من وسائل الانتفاع لجميع أبناء الأمة. ۲ - أن يكون هـذا الضـمان بطريقـة تحفظ كرامة المسـلم، و لا تذله، حتى تبقى حالته المعنوية على درجة من القوة و الكفاية للحرب. ۳ - توثيق روابط الحب بين أبناء الاسـلام جميعا حتى يصـيروا كالجسـد الواحـد. ۴ - العمـل على قمع خلق التجبر الـذى يقف حائلا- دون اهـداف ايجـاد حالاـت من العـداء الناشـىء من اسـتغلال المتجبر للفقير أو لعرضه، أو تسـخيره فى أعمـال غير مشـروعة للحصول على الكفاية من الرزق. ۵ - و أولا و أخيرا: وجوب الجهاد بالمال و النفس و الفكر و كل القوى البشـرية فى سبيل الله. و لضمان نجاح هذه المهمة السامية شـرعت الزكاة حقا للفقير لا منا و أذى من دافعها، و شـرعت الصدقات الحرة بآدابها التى تحفظ كرامة المسـلم، و شرع الزهـد فى الدنيا و ايثار الآخرة عليها، و المساواة بين الجميع فى الحقوق مع الاحتفاظ بمقادير المواهب المتفوقة [صـفحه ۷۳] للأعمال القياديـة العامـة. و كـان الزهـد و التقلـل من وسائل الانتفاع وسـيلة لتحقيق الجهاد فى سبيل الله لنشـر الاسـلام فى أى زمان مسـتقبل قد يحتاج المسـلمون فيه الى جهود مالية ضـخمة كما هو الحال فى عصـرنا الحاضر ولكن بكل أسف نحتاج اليه لصد طامع مغير أو محتل لأرض المسـلمين بالفعل لا لنشـر الاسـلام فى ربوع أخرى كما أمرالله، و ما كان الأصل الـذى ترجع اليه أسـباب الأنتكاس الا الحرص على المال و حبسه عن وجوهه المشـروعة، و استبداد النفس بالمسلم لانفاقه فى وجهه غير مشروعة من الشهوات و الملذات. و لقد بدأ انتكاس المسـلمين عن طريقهم منـذ عهـد بنى‌أميـة. و يكفينا فى هـذا الصـدد أن نورد خبراء جاء فى «أسـد الغابة». و غيره من المراجع يقول: ان قاتل الامام الحسين جاء الى فسـطاط أمير الجيش و هو عمر بن سعد بن أبى‌وقاص، فوقف عليه و أنشد: أو قر ركابى فضة و ذهبا فقد قتلت السـيد المحجبا قتلت خير الناس أما و أبا و خيرهم اذ ينسـبون نسبا فقال له عمر بن سعد: ويحك، تقول هذا الكلام؟ لو سمعك زياد لقتلك. أشـهد أنك مجنون، و حـذفه بقضـيب كأن معه. و عمر بن سـعد هـذا الذى اسـتعظم مقالة سـفان بن أنس الذى اشترك فى قتل الحسـين حينما سـمع منه هذا الشـعر، هو نفسه الذى أمر نفرا فركبوا خيولهم و أوطأوها الحسـين الشـهيد. و ثار زيد بن أرقم حينما رآى ابن‌زياد ينكت بين شـفتى الحين بقضيب فى يده و خرج يقول: أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم قتلتم ابن‌فاطمة، و أمرتم ابن‌مرجانة، فهو يقتل خياركم و يسـتعبد شـراركم. على هذه الصورة من الاضـطراب و اختلال القيم بدأ الناس طريقهم فى عصر بنى‌أمية، و غنى عن البيان أن التيار قد اجترف أبناء كبار الصـحابة من أمثال عمر بن سـعد بن أبى‌وقاص الذى ازدوج تفكيره هو الآخر على الصورة التى نراهـا فى القصـة السابقـة. أصـبح المال مطلوبا بحيث يذبـح فى سبيله السادة خير الناس أما و أبا بعـد أن كان مطلوبا لاسـتخدامه فى ذبـح أهـل الكفر أو المتطاولين على خير الناس أما و أبا. و لابـد أن يتبع هـذا الجشع الى المال شـح به، و حبس له عن

مصارفه المشروعة، و توجيهه الى مصارف [صفحه ۷۴] غير مشروعة، و من هنا بدأ تهديد أصل من أصول الاسلام هو: الجهاد بالمال فى سبيل الله، و اذا انعقد القلب على حب المال فان الجهاد بالنفس فى سبيل الله أصبح هو الآخر هدفا للتهديد بالانهيار. و اذا شحت النفوس بالمال دب الحقد فى القلوب، و تعددت الوسائل المحرمة للوصول اليه، و أثرى البعض ثراء فاحشا، و من على الفقير بما يعطيه من سقط المتاع، و انحلت وحدة الأمة، و فقدت فاعليتها فى ميدان الجهاد المفروض. من أجل ذلك كان لابد من منهج معارض، و أن تكون المعارضة بناءة تتبنى أصل الاسلام و لا تحيد عنه الى الباطل السائد، و كان زعماء المعارضة دائما هم آل البيت النبوى و من سار على نهجهم مدى الأيام. أما أن المعارضة لم تستطع فى ذلك العصر كبح النفوس الحافحة وردها الى الصواب بحيث يعود الاسلام و دولة الاسلام ألى الأصل الذى كانت عليه فى الصدر الأول، فما ذلك الا لأن من المعلوم للجميع أن الفساد أسرع و أشد سيطرة على النفوس من الخير، و أن العودة بالنفوس الى أصلها يحتاج الى وقت طويل، و قرون عديدة حتى يمكن أن يقتنع العالم الاسلامى بصورة جماعية بفساد المنهاج الذى كان عليه، و بضرورة العودة الى الأصل، و التخلى عن هوى النفس السائد. فمن غير المعقول أن يتم اقناع المجتمع كله فى تلك الفتنة العمياء، ولكن الذى نجح فيه الامام و من سار على نهجه هو تكوين مدرسة واعية لمنهج المعارضة عميقة الفقة لأصول الاسلام و أهدافه المحلية و العالمية، تنقل ذلك المنهج الى الطلاب على مدى الزمن، حتى لا يكون عصر من العصور عاطلا من المعارضة البناءة، و هو ما حدث بالفعل. لقد تناقل العلماء و المعلمون مبادىء المعارضة حتى وصلنا الاسلام سليما من كل زيغ، واضح الأهداف، و انكمشت على مدى هذا الزمان الطويل بفضل تلك المعارضة كل المذاهب الدخيلة التى كانت تعمل جاهدة فى القضاء على العقيدة ذاتها، و لم يبق منها الآن غير أو شاب تتضاء بمرور الزمن ليحل محلها دين الله القيم. فما من بلد من بلاد الاسلام الآن الا وصوت المعارضة يرتفع بين أبنائه مهيبا بالمسلمين أن يعودوا الى أهل سلوكهم الذى قامت عليه حضارتهم. و قد جمعت المعارضة أصل السنة و الفقهاء السنيين، و معتدلى الصوفية فى اطار واحد من الدعوة الجادة للعودة الى السلوك الأول للمسلمين. [صفحه ۷۵] و لئن كان الصوفية باعتبارهم أول من حمل رسالة الزهد و توجيه المال الى وجوهه المشروعة، و كبح جماح النفوس قد شملهم التطرف بعض الزمن، و اتجهوا الى التصوف النظرى، و أيدعوا الحديث عن المقامات و الدرجات فى الوقت الذى أهملوها سلوكا، و خلطوا المقامات بالخرافات أحيانا، و حاول منحرفوهم الحجر على العقول لئلا تعترض سلوكا فاسدا، لئن كان ذلك كذلك فان دعوة جادة تأخذ مكانها الآن الى تجريد التصوف من تلك الشوائب، و عرضه نقيا واضحا سليما على النحو الذى نقله آل البيت عن آبائهم عن جدهم صلى الله عليه و سلم. هذا هو فضل الامام السجاد، و فضل أبنائه، و فضل أبناء عمه الامام الحسن، و فضل العقلاء من طلابهم و مريديهم لا يرتاب فيه اثنان. ولو أنهم اندمجوا فيما ساد فى عصرهم من أهواء لما كانت بلاد الاسلام على الوضع الذى نراه الآن. ان وضع أمم الاسلام لا يرضى المؤمن الحق، ولكن هذا التدهور ما كان الا بفعل الاغراء بالدنيا، و انعقاد القلوب على حبها، ذلك السلوك الذى أسسه بنوأمية عن قصد أو عن غير قصد، فالله أعلم، ولو تكن تعاليم الاسلام الحق قد وصلتنا على أيدى أهل‌البيت و بقية الصحابة كان الحال أسوأ و أسوأ، و لكانت سائر بلاد الاسلام قد لقيت مصير أسبانيا الأموية الأساس، و التى اندثر فيها الاسلام تماما. نعم، اننا لم نصل الآن الى درجة السلوك العملى للمسلمين الأوائل، ولكننا وصلنا الى ظهور أصوات كثيرة تدعو اليه، و تؤكد جدواه فى ميدان السياسة الاسلامية العالمية المفروضة على المسلمين. و لازلنا نجد فى القلوب غضاضة من قبول مبدأ البساطة فى الحياة الى أقصى حد ممكن، بحيث يكون المؤمن نظيفا فى هيأته و مسكنه و مأكله بأبسط ما يمكن من التكاليف، لا سيما و أن انحلال الأمم الأوروبية يغزونا بمختلف البدع التى تثقل الكواهل، و تستنزف الأموال فى غير وجوهها. و مع ذلك فان الدعوات المعارضة تشتد و تتآزر مع النكبات التى يضرب الله تعالى بها أمم الاسلام، و سيكون لنا ان شاء الله من ذلك كله درسا قاسيا يصلنا بأصول الاسلام الناجمة فى بناء الحضارة. و لا يجوز أن يحتج راغب فى الترف بأن الامام زين‌العابدين و الكثير من آل البيت كانوا يلبسون فاخر الثياب، فهذا احتجاج باطل. [صفحه ۷۶] فقد كان زين‌العابدين كما رأينا يبيع تلك الثياب الفاخرة بعد الشتاء، و يتصدق بثمنها على الفقراء. فهل هو ترف آخر أن يبيع الثياب ليشترى بدلا منها فى عامه القابل؟ أم ان هناك سرا فى هذا

السلوك يخدم الهدف الذى تبناه و خطط له تخطيطا دقيقا؟ الحق أن السجاد و آل البيت كان لهم محبون قد شغفوا بهم و هاموا حتى دفعهم الحب الى اخراجهم عن نطاق البشر، و كان جل هؤلاء الغلاة من غير العرب، و كانوا على جانب من الثراء، فلا شك فى أن ثوب الامام السجاد الذى اشتراه بخمسين دينارا كان يباع بأضعاف هذا الثمن التماسا لبركته، و نحن لا نزال نرى فى عصرنا كيف أن آثار العظماء، و أسماء أهل الفن تبلغ أسعارا خيالية فى الأسواق، و الانسان هو الانسان، و لا زالت شعرات قالوا: انها من شعر رسول الله صلى الله عليه و سلم فى الهند هددت بحرب دموية حين سرقها بعض الناس. اذن هى محاولة لاخراج المال من الخزائن للعودة بها على مستحقيها ولكن بوسيلة أخرى اذ لم تجد وسيلة الأمر و النهى المقررة فى الاسلام. لم يكن الامام مترفا و لا شحيحا، بل كان المثل الأعلى للزهد فى الدنيا، كما كان المثل الأعلى للجود بها على كل طالب محتاج، و كان اذا رآى السائل قام اليه فأعطاه و قال: «ان الصدقة تقع فى يد الله قبل أن يد السائل» ثم يومى بكفيه. و فى مجال الكرم كان يسوى بين الصغير و الكبير فيه، و روى نصر بن أوس فى ذلك: أنه كان يدخل يده فى التمر فيعطى الكبير و المولود سواء. [صفحه ۷۷]

السجاد

لابد أن يكتمل منهج الامام زين‌العابدين الذى هدف منه الى البقاء على الاسلام النبوى، و الى الرغبة فى وصوله كما هو الى الأجيال القابلة من المسلمين. و الاسلام ليس عمرانا فى مجال المادة التى تخدم شريعة الجهاد حسب، بل هو عمران روحى يدوم المسلم به على صلته بربه اتصالا روحيا، بحيث يتخلى بعض الوقت عن كل شىء فى الوجود الا عن مناجاته لربه و الانخلاع من أوضار الفكر المادى حتى ولو كان هادفا الى خدمة الاسلام. و الجانب الروحى فى الاسلام يعتبر بمثابة تجديد للوعى الدينى الأصيل خشيه أن تعدو عليه شئون الحياة فتحوله الى نظريات يجيد المسلم الكلام عنها، و لا يجيد تطبيقها. و هذا التحديد الدائم للوعى الدينى فى الواقع هو الحافز العميق فى الانسان، الذى يدفع به الى تتبع آداب الاسلام الأخرى، و تطبيق دستوره المادى فى عزم و اخلاص بدافع الحال الذى يحسه المؤمن بعد كل تجربة روحية عبادية. و هذا الحال عبارة عن: تذوق خاص لأعمال العبادة، و احساس بما يفيض من الغيب على العابد من فيض لا يخضع فى التعبير عنه لقيود اللغة، لاختلاف ألوانه باختلاف العبادات. ولكنه على أى موجات من الرضى أو الحبور، أو الشهود القلبى تدفع الانسان الى الاستزادة من العمل، و محاولة تخليصه من كل آفة حتى يصل العابد الى الحال مصفى من كل كدر، و يصبح «مقاما» و ملكة من ملكات المؤمن ينعكس نورا فى قلبه، و ذكاء فى عقله، و علما يفيض على القلب بلا أستاذ، وفقها عميقا فى الآفاق و الأنفس تقصر دونه العبارات، و أخيرا قوة عارمة فى الباطن و الظاهر لا تدانيها قوة. قوة فى ذات الانسان، و قوة فى تسديد الدعاء و الوصول به الى الله تعالى خالصا لا تعوقه عن الاجابة آفة عائقة. و لذلك كله اختار الامام زين‌العابدين نقش خاتمه «القوة لله جميعا». و فى هذا الاختيار براءة من الحول و القوة، و توجه كلى الى الله فى كل الأمور يتأكد معها اجابة الدعاء الخالص الذى تزول به حينئذ الجبال كما جاء فى السنة، و الذى تسرى بركاته الى كل من دعابه، لأنه كان من قلب فياض يحمل الكلمات من روحه ما يؤثر به [صفحه ۷۸] فى قلوب الآخرين دون شك. و سنشير الى نموذج من ذلك أثناء هذا الفصل ان شاء الله. أطلقو على الامام على بن الحسين ألقابا كلها تشير الى أنه كان قمة فى الوعى الدينى الأصيل كما كان قمة فى منهاجه الذى تبناه فى الاصلاح المادى. سموه «زين‌العابدين»، و سموه «السجاد». و ما ذاك الا لأنه اختار الصلاة و السجود يفرق روحه فيها، و يغترف من معين فيضها ما شاء الله حتى صار بحق زين‌العابدين على الاطلاق. لم يؤثر عنه كثرة الصيام، و لا تشجيع على القتال، ولكنه اختار الصلاة لأنها جماع العبادات كلها، لا توجد عبادة الا و فى الصلاة منها شىء. فيها من الصوم حقيقته ببطلانها مع الطعام، و معناه ينقصانها مع التفكير فى غيرها و غير ما فيها من مناجاة و أذكار، و فيها من الحج التوجه الى البيت، و وحدة القصد، و فيها من الجهاد جهاد النفس و العقل و القلب على التخلى عن كل شىء فى الوجود، و فيها من العلم أنه ليس لك منها الا ما عقلت و فقهت من معانى أذكارها و حركاتها، و فيها من الزكاة حرمان البدن من النوم و الراحة فى سبيل الله. و الصلاة أعظم العبادات قدرا على الاطلاق،

فما من عبادة الا و يجوز أداؤها مع الحركة و الكلام و التحرر الجسدى الا هى فلا يجوز فيها كلام و لا حركة و لا مزاولة أى شأن من شئون الحياة. و لذلك اختارها الامام زين‌العابدين مجالا حيا تحلق فيه روحه ما شاء الله لها من التحليق، و تغترف منها ما شاءت من معين الحب الذى لا ينضب. و تجمع الروايات على أنه كان يصلى فى اليوم و الليلة ألف ركعة. و نرى أن العدد المروى ما قصد به الا أنه كان يكثر من نافعة الصلاة بما لا يعهد فى غيره من العباد و أهل الفضل، لأن هذا العدد من الركعات يمكن أداؤه فى أربع و عشرين ساعة بواقع دقيقة و نصف دقيقة تقريبا للركعة الواحدة. و قد كان الامام يجلس للناس، و يشتغل بالعلم، و يرى أهل‌بيته و أبناء عمه، و ينام، و يطعم، كما أنه ليس من دأبه الاسراع فى الصلاة، بل كانت له سجدات طوال يفرق روحه فيها بالمناجاة و الدعاء. فعلى أى حال لقد كان الامام متفوقا على غيره فى نوافل الصلاة و قيام الليل، معينا بالصلاة عناية خاصة، حتى لقد كان يتتبع الصغار من آل البيت و يحثهم على الصلاة اذا بلغوا السابعة من العمر. قال ابنه الحسين بن على: دخل علينا على بن الحسين و أنا و جعفر (حفيده) نلعب [صفحه ۷۹] فى حائط (بستان) فقال أبى‌لمحمد بن على: كم مر على جعفر؟ (يعنى من العمر) قال: سبع سنين. قال: فمروه بالصلاة. هو يريد أن ينشأ أهل‌البيت على الصلاة منذ الصغر ليدركوا ما فيها من صقال للنفس، و ابراز لجوهر الروح، و وعى كامل للاسلام لا سيما اذا كانت من صلاة الليل التى أمر النى صلى الله عليه و سلم بها الليل كله الا قليلا، بحيث لا يقل وقت صلاة الليل عن نصف الليل الا قليلا، و يزاد على ذلك حسب الاستطاعة، قال تعالى: (قم الليل الا قليلا (۲) نصفه أو انقص منه قليلا (۳) أو زد عليه و رتل القرآن ترتيلا (۴))[المزمل:۲، ۳، ۴] و لأمر ما كانت صلاة الليل أكثر الصلاة بركة، و أصغاها مناجاة، و أجملها عائدة على العقل و الروح، بل و على الشكل العام للانسان، حتى لقد أفردها عباد السلف بالعناية، و تسابقوا اليها، و استكثروا منها، و قالوا فى تعليل الجمال الفائض على القلب منها الكثير، و جاء فى السنة قدر كبير من الأحاديث التى تحث عليها، و تصور ثوابها و فوائدها بما يدفع الانسان اليها بقلبه و روحه و كل أحاسيسه. و لشغف الامام زين‌العابدين بالصلاة شغف كذلك بالمناجاة لله تعالى فى المواطن المباركة كالكعبة، و عند السجود، و له فى تلك المناجاة أساليب تنم عن روح صوفية رفيعة و ذوق فياض جميل و اخلاص لا نجد له نظيرا الا بين أفراد قلائل من عباد المسلمين. و لشدة اخلاصه فى مناجاته تلك كانت بركاتها تسرى كما قلنا الى كل من قلدها، و ناجى ربه بها محاولا أن يصل الى أقصى ما يمكن الوصول اليه من الاخلاص فيها. قال طاووس بن كيسان: سمعته و هو ساجد عند الحجر يقول: «عبيدك بفنائك، سائلك، فقيرك بفنائك». قال طاووس: فوالله ما دعوت الله بها فى كرب قط الا كشفت عنى». و لقيه الحسن البصرى فى الكعبة، و كان زين‌العابدين ملثما يبكى و يتضرع و ينشد: ألا أيها المأمول فى كل حاجة شكوت اليك الضر فارحم شكايتى ألا يا رجائى أنت كاشف كربتى فهب لى ذنوبى كلها واقصد حاجتى فان اليك القصد فى كل حاجة و أنت غياث الطالبين و غياثى قال الحسن: فقلت: يا سلالة النبوة، ما هذه المناجاة و البكاء و أنت فى أهل‌البيت؟ [صفحه ۸۰] و قال الله عزوجل: «ليذهب عنكم الرجس أهل‌البيت و يطهركم تطهيرا». قال: «دع يا بن أبى‌الحسن. خلقت الجنة لمن أطاعه ولو كان عبدا حبشيا، و خلقت النار لمن عصاه ولو كان حرا قرشيا، و قال صلى الله عليه و سلم: ايتونى بأعمالكم لا بأنسابكم». و قال محمد بن كعب القرظى: كنت فى مسجد الكوفة بعض الليالى. فأتى على بن الحسين زين‌العابدين رضى الله عنه فى نصف الليل حتى بلغ باب المسجد و هو يقول فى بعض مناجاته: «يا حبيبى و قرة عينى، غلقت الملوك أبوابها، و طافت عليها حراسها، و بابك مفتوح». ثم دخل المسجد و صلى. و لا شك أن هذا اللقاء بين محمد بن كعب و الامام قد كان فى غير الكوفة، لأنه لم يذهب الى الكوفة فيما نعرف، و لا سبيل الى انكار الواقعة لهذا الخطأ، فالأسلوب أسلوب الامام الرقيق الذى تميز به فى مناجاته. و من مناجاته أيضا: «يا موضع كل شكوى، و سامع كل نجوى، يا شافى كل بلوى، يا عالم كل خفية، و يا كاشف ما تشاء من كل بلية، أدعوك دعاء من اشتدت فاقته، و ضعفت قوته، و قلت حيلته، دعاء الغريب الفقير الذى لا يجد لكشف ما هو الا أنت يا أرحم الراحمين، لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين». و كان يقول فى سجوده: «اللهم ان كنت عصيتك فانى قد أطعتك فى أحب الأشياء اليك و هو الايمان بك منا منك، لا منا عليك». و نحن نلاحظ فى دعاء الامام كما ترى مسحة عن الاعتراف بالذنب، و مسحة من الحاجة الملحة الى الله تعالى فى صورة

لا تقنع الا به، و هذه المسحة هى التى سماها الصوفية فيما بعد بالفقر، و أفردوا لها البحوث، و شققوا فيها الكلام. و لقد ورد الفقر فى القرآن الكريم فى مواضع عدة أهما هنا قوله تعالى: (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله و الله هو الغنى الحميد (۱۵))[فاطر: ۱۵] و الفقر فى الآية يشمل الفقر المادى، و الفقر المعنوى على السواء: و الامام يلجأ الى الله لجوء من اشتدت فاقته، و أحاط به الكرب فليس له الا هو سبحانه: و انما يعنى بذلك الفقر المعنوى الذى تحدث عنه الصوفية. و هذا النوع من الفقر أثر من آثار اقامة الصلاة على وجهها الصحيح، و التسامى بالروح [صفحه ۸۱] من خلالها الى الأفق الأعلى الذى يرتد الانسان بعد التحليق فى أجوائه حسير اكسيرا عارفا بقدرة كانسان عاجز بسيط محتاج مهما أوتى من المال و الجاه و القوة على مقارعة المشكلات. فالفقر الذى كان يشعر به الامام هو: الاحساس بالحاجة الى الله عن يقين و صدق فى كل الحركات و السكنات، بحيث يبطل حول الانسان وقوته، و تعدد الأعمال الانسانية كلها بما فيها من جهد و صبر الى الله، فهو سبحانه الذى وفق للعمل، و هو الذى أخذ بالناصية ركوعا و سجودا و قياما، و هو الفعال فى كل شىء بجهد عبده الذى منحه اياه. فاذا استقر هذا الشعور - و هو من ثمرات الصلاة ظاهرا و باطنا - آمن الانسان بأنه عاجز لولا قوة الله تؤازره، و بأنه مذنب لو لا غفران الله يظله، و بأنه مقصر لولا رحمة الله تتغمده، و هذا هو الفقر الحقيقى السائد فى مناجاة الامام، و منه كان الشعور بالذنب الذى يدمن زين‌العابدين الابتهال الى الله فى غفرانه. ليس ذنبا ناشئا عن ارتكاب كبيرة، أو مقارفة مكروه، ولكنه شعور الفقير الحق الى الله بأنه لم يفعل شيئا يؤدى به حق الله، و لا حق الشكر على ما وفق من عمل. و هو مع كل ذلك الخوف و الاشفاق من شبهة الاستقلال بالعمل، أو استعذاب الحال الفائض أثناءه أو بعده، أو عدم مطابقة الظاهر للباطن فى أداء الأعمال، و هو ما أشفق منه الامام السجاد حين كان يقول: «اللهم انى أعوذ بك أن تحسن فى لوائح العيون غلانيتى، و أن تقبح فى خفيات العيون سريرتى». و لقد عبر الامام عن شعوره بالذنب الخفى الذى هو من ثمار مقام الفقر حين قال للرجل الذى وقع فيه و أساء اليه: «يا أخى، ما ستر الله عنك من عيوبنا أكثر». و لم يكن للامام عيوب مما يسميها الناس عيوبا قد سترها عن الناس الا تلك المشاعر السامية التى تدخل فى باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين». و لعل شعوره بالذنب كان كما قلنا قبلا لأنه لا يستطيع القيام بحق الجهاد و النصرة للاسلام الى فى ذلك النطاق الذى غير حياته كلها يعمل فيه. على أن المشاعر التى كانت سائدة فى عصره كانت تثق فى المال و الجاه ما لا تثق فيما عندالله من عون أو ثواب. و حتى الخلفاء أنفسهم قد اتسمت جميع أعمالهم بالمادية [صفحه ۸۲] يقيسون الأمور بها، و يعتبرونها مقياسا للعظمة فى دولة الاسلام. كان المجتمع على الصورة التى أفصح عنها الحارث بن أسد المحاسبى بعد عصر الامام حين قال: «لو قيل لأحدهم: هل لكم فى الدنيا حراما، و تحاسبون عليها فى الآخرة لرضوا». كانوا يحبون العاجلة و يذرون الآخرة، فأكثر الامام من المناجاة، و اتسمت مناجاته دائما باعلان الفقر الى الله، و بالاعتراف: بالذنب، و بأنه لا غنى الا باذنه، و كان ذلك فى مواجهة ما زاع فى عصره من قيم تخالف روح الاسلام و جوهره. [صفحه ۸۳]

آداب سلوكية

ناس لا يصلحون للصداقة

كان الامام رضى الله عنه خبيرا بأخلاق الناس خبرة عميقة، عارفا بمن يصلحون للصداقة و من لا يصلحون. و لم يدع الى مقاطعة الناس و الهرب منهم كما دعا من بعده من الزهاد و العباد المصلحين، لأن الانسان لم يمكن بعد قد بلغ درجة من الشراسة فى الفساد ينبغى معها الحذر من الجميع كالحذر من السبع الضارى كما يقول ابراهيم بن أدهم. و قد اكتفى الامام زين‌العابدين بالتحذير من أنواع معينة من الناس: و أول الأنواع التى حذر من صحبتهم: الفاسق، و الفاسق هو الخارج عن دين الله، المجاهر بالعصيان، المستعذب له، و قد علل خطورته بأنه «يبيعك بأكلة و أقل منها، يطمع فيها ثم لا يجدها». فالفاسق يتفق فى الأخلاق و الطبائع مع «المدمنين» و المتاجرين بالأعراض فى عصرنا الحاضر، و هذه الفئات كلها تصل الى حال من الانحلال الخلقى تفقد معه الشعور بحقوق الروابط

العائليـة و الاجتماعية بل و الأبوية كذلك، لا يفكرون الا فى الشـهوات المتسـلطة، و الادمان الملح. و الفسوق بأنواعه الأخرى يتفق مع تلـك الأنواع فى موت الضـمير، و عـدم الشـعور بالمسـئولية و لا بالتزام، و لـذلك كثيرا ما تطالعنا الصـحف بالمعتـدين على آبائهم أو أمهاتهم أو اخواتهم فى سبيل امرأة، أو فى سبيل الحاح الادمان على مخدر، أو رغبة فى السـلب و النهب. تلك خلائق الفاسـقين دائما فى كل عصـر تتركز فى سيادة مذهب المنفعة الشخصـية و اسـتباحة الوسائل اليها، ثم الغباء فى تقدير الظروف، حتى ليضـحى الفاسـق أولا بالروابط المقدسة طمعا فى سـراب ثم لا يجده شـيئا بعد ذلك. و ثانى الأنواع التى حذر زين‌العابدين من صحبتهم: الكاذب، و قد علل رداءة هـذا النوع من الناس بأنه «كالسـراب يقرب منك البعيـد، و يباعد منك القريب». و الذين جربوا معاشـرة الكذابين يدركون مـدى الاثارة التى تحدثها كذباتهم حينما [صـفحه ۸۴] يقطعون شوطا كبيرا وراء السـراب الـذى يتراءى لهم منهم ثم لا يجدونه شـيئا. كما أن تقريب البعيـد و مباعـدة القريب فيها مضـيعة للوقت فيما لا يجـدى شـيئا، لا فى الدنيا و لا فى الآخرة. و ثالث الأنواع التى حذر منهـا هم: أهـل الحمق، فقـد قـال لابنه: «و لا تصـحب الأحمق، فانه يريـد أن ينفعك فيضـرك». و الأحمق هو: السـخيف العقل الغبى، السـيء فى تصـرفاته، و الضـرر الذى يصـيب صاحبه منه عن غير قصد معروف مشـهور فى العلاقات الاجتماعية للجميع. ولكن الجديد هنا: أنه لا يـدرك هـذه الأضـرار الا ذكى ألمعى يفرق بين الأحمق و غير الأحمق، و أما مجتمع الحمقى فلا يكاد يبين بينهم حمق من ذكـاء. و رابع الأنواع: قـاطع الرحم، و يقول لابنه عنه: (فهل عسـيتم ان توليتم أن تفسـدوا فى الأرض و تقطعوا أرحامكم (۲۲) أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم و أعمى أبصارهم (۲۳))[محمد۲۲، ۲۳] فصحبة الملعون من الله حب لما كره الله، و مجلبة للعنة بهذا المخالفة الواضـحة لمحاب الله، على أن قاطع الرحم مع ذلك أسـرع الى مقاطعـة غير ذوى الرحم، و أقرب الى التقلب و أبعـد عن مبـدأ النصـح المقرر فى الاسلام كدليل على صدق الايمان.

لا تبالغ فى المدح

المـدح فى ذاته أمر مكروه فى الاسـلام الاـ ان كـان صادقا، و كان الممـدوح ممن قويت قلوبهم فلم يغرهم الثناء، و لم يخرجوا به عن دائرة الاسـتقامة الى دائرة العجب و الخيلاء. و هـذا النوع القوى قليـل بين أهل الفضل، و لـذلك كان واجبا أن تسـد الـذرائع فلا يلجأ الانسان الى مدح غيره حتى لا يفتح له بابا من الشر كان فى غنى عنه. و لقد أفاض الحارث بن أسد المحاسبى فى الحديث عن أخطار المدح فى كتاب «الوصايا» و انتهى الى أنه قل من ينجو من عطب المدح، و قرر أنه لو استوى المادح و الذام فى نفس انسان فانه قد لا يسلم من شهوة خفية تدفعه الى السرور بمجالسة المادح، و النفور من الذام رغم التسوية بينهما فى المعاملة فى ظاهر الحال. و لقد أشار الرسول صـلى الله عليه و سـلم الى خطورة المـدح على قلوب السـالكين الى الله فقـال للمادح أخاه بظهر الغيب «قطعت ظهر أخيك». و قال فى مناسـبة أخرى: «لو سـمعها ما أفلـح». [صـفحه ۸۵] و قـال محـذرا من المـداحين: «احثوا فى وجوه المـداحين التراب». فالمادح شيطـان يبعث الغرور فى نفس الانسان، و الغرور باب من أبواب الفشل فى السـلوك كما قال رسول الله صـلى الله عليه و آله و سـلم. و زين‌العابدين رضـى الله عنه قد لجأ الى وسيلة بسيطة للتنفير من المادح غيره بما لا يعلم من الخير، المبالغ فى اضفاء خلال الصلاح على صاحبه و قوام هـذه الوسـيلة هو ما يلحق الممدوح على هذه الصـفة من ذم مقابل للمدح بما لا يعلم فى الممدوح من خلال الشـر. قال الامام: «لا يقول رجل فى رجل من الخير ما لا يعلم، الا أوشك أن يقول فيه من الشر ما لا يعلم».

لا تصحب غيرك الا على طاعة الله

الحب فى الله و الصحبة فيه، و البغض لله و الفرقة من أجله هو السلوك الاسلامى الصحيح، العائد بالخير على الانسان، و المباعد له من الانحراف أو مظنـة الانحراف. فالصـحبة لمآرب النفس، و لمصالـح الـدنيا أمر ممقوت فى الـدين و العرف على السواء، فهـذا النوع هو الوصولى الانتهازى الـذى تنفر منه المجتمعات و تزدريه العيون و القلوب. و الصـحبة على المعصـية أشـد مقتا عنـدالله، و لا حجـة لمن

يقول: أصحب العصاة لآمرهم و أنهاهم، فالأمر و النهى قد يكونان على غير صحبة و صداقة، و النفس سريعة القبول للعدوى، و المجاملات المألوفة بين العصاة عامل من عوامل لين القلوب بعضها الى بعض، و من ثم يندمج الجميع فى المعصية على وجه من الوجوه، اما بمقارنتها بالفعل، و اما بالسكوت عن النهى، و اما باستلذاذها فى القلب، و كل ذلك تحول بالقلب عن وجهته التى شرعها له الله تعالى، اذ شرع الله تعالى للقلب أن يكون محلا لذكره، أو محلا للفكرة الداعية الى ساعة، أو المنفرة من معصية، أو الكاشفة عن عظمة الله فيزداد بها الايمان، أو الرافعة للحجب حتى يعاين الانسان مواعيد الله من الثواب أو العقاب على وجه اليقين فيرجو أو يخاف. و تحذير من صحبة العاصين لأى سبب من أسباب الصحبة يقول الامام زين‌العابدين: «ما أصحاب اثنان على معصية الا أو شك أن يفترق على غير طاعة».

من أدب العلماء

العلماء موازين الحق الموضوعة فى الأرض يهتدى الناس بهديهم فى ظلمات الفتن، [صفحه ۸۶] و يتلمسون أعلام الطريق اذا حاول طمسها فرد أو جماعة ممن لهم مأرب فى التضليل عن طريق الله. و صلاح الأمة مرتبط أشد الارتباط بصلاح العلماء، و فسادها مرهون بفسادهم، و قد قال السلف فى ذلك الكثير، و شبهوا العلماء بالرأس، و الرعية بالجسد، فاذا فسد الرأس فسد الجسد، و شبهوهم أحيانا أخرى بالطبيب يعالج المرضى فاذا مرض الطبيب فمن يداويه؟ و من يداوى أولئك المرضى؟ و لقد ركز الامام زين‌العابدين آفة العلم فى: الاغراق فى الضحك، و فى كتمه عن الناس، و فى أخذ الأجر عليه أو استخدامه لنيل الوفد و العطاء. فقال: «من كتم علما، أو أخذ عليه أجرا، أو رفدا، فلا ينفعه أبدا». و قال: «من ضحك ضحكة مج من العلم مجة». فكتم العلم صد عن سبيل الله بالامتناع عن ارشاد الناس الى الطريق، و رضى بالباطل يسود فلا يسارع العلماء الى دفعه و العمل على سيادة الحق عليه، و حجر على الناس أن يسارعوا الى عمل الخير بعدم بيانه لهم، و دعوتهم اليه، و محاولة خفية لابتزاز الدنيا من الناس ببذل العلم حينما يكتمه العلماء، و يحتاج الناس اليه. و قد جرت سيرة العلماء الفضلاء من السلف على اعتبار العلم و بذله و تعليمه للناس عملا واجبا من صميم النصح لله و لرسوله و لعامة المسلمين و خاصتهم بحجزهم عن الشر، و هدايتهم الى الخير، و اعتبروا معاشهم أمرا منفصلا عن العلم، يسعون اليه بوسائلهم الخاصة، و لا يتخذون من العلم وسيلة لقضاء مصالح العلماء الدنيوية، و دفع الناس الى ارفاقهم بالعطاء. و قد كان الثورى يعمل تاجرا لكسب عيشه، و كان ابراهيم بن أدهم يعمل فى حصاد القمح و حراسة البساتين لنفس الهدف، و لا زالت أسماء عزيزة تطالعنا من التاريخ تكشف عن الحرف التى كان يزاولها العلماء لكسب عيشهم منفصلة عن العلم، كأبى على الدقاق، و القواريرى، و القفال. و كان الامام الأعظم أبوحنيفة تاجرا، و كذلك كان الشافعى شطرا من حياته، و كان ابن‌حنبل يعيش من غلة عقار بسيط و على هذا ما فضلاء السلف جميعا بلا استثناء. ثم حدثت بدعة أخذ الأجرة على تعليم العلم بعد زين‌العابدين واضحة، مما يدل على وجودها خفية فى عصره، أو انها كانت مجرد رغبات تساور نفوس العلماء فى عصر كانت المادة تلعب دورا هاما فى افساد ضمائر الناس، و كان خلفاء بنى‌أمية فى حاجة الى [صفحه ۸۷] المال، و كان حياتهم يتعللون بهم فى جمع المال من غير وجوهه، و كان للعلماء نصيب لقاء فتاواهم التى تبيح هذا العمل الآثم. على أن أخذ الأجر على العلم الصحيح يزود العلماء بوسيلة الفساد التى تدفهم فيما بعد الى أخذ المال لاصدار فتاوى فاسدة تخدم بعض الأغراض التى يريدها أولو الأمر أو المحبون للمال. و هكذا لاينتفع العالم الكاتم لعلمه و الآخذ عليه أجرا بعلمه، و من ثم لا ينفع به غيره، فقد أصبح علمه مدخولا، كما أصبح معبرا للفاسد يعبر على فتاواه المفسدون فى الأرض الى أهدافهم. و من هذا القول الذى أثر عن الامام زين‌العابدين يمكن أن نشك فى نسبة أبيات نسبت اليه تقول: انى لأكتم من علمى جواهره كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا و قد تقدم فى هذا أبوحسن الى الحسين و وصى قبله الحسنا يا رب جوهر علم لو أبرح به لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا و لا ستحل رجال مسلمون دمى يرون أقبح ما يزتونه حسنا فهو رجل صاحب رسالة بسيطة الرغبة فى اعادة المسلمين الى سلوكهم الأول الذى كان عليه النبى صلى الله عليه و سلم و صحابته، و ليس من هذا المنهاج الاشارة الى

غرائب العلم و جواهره التى تدفع الى البلبلة، و تغرى الناس باصطناع السرية التى عاش الامام حياته حربا عليها، فلم تكن من صنيعه يوما من الأيام. و هو لا يخشى ظهور الحق، و لا يخشى الفتنة من الحق، بل كان حياته كلها داعيا الى الحق، يبصر به الجاهل و العالم، و انما ظهرت فكرة الخوين على الجهال من الفتنة بالحق فى عصر متأخر عن عصر زين‌العابدين، حينما تعمق الصوفية فى نظرياتهم، و أغربوا فى الفتنة عليه فى عقيدته، و لم يكن ذلك من عناصر فكر الامام السجاد بحال. و هذه السرية التى يخشاها قائل هذه الأبيات على العامة قد أشار اليها الشيخ الأكبر محيى‌الدين بن عربى - و من العجيب أنه لم يشك فى نسبتها الى السجاد - حيث قال فى الفتوحات المكية (۱ / ۲۶۰) و نبه بقوله: يعبد الوثنا، على مقصوده من تأويل قول النبى صلى الله عليه و سلم: ان الله خلق آدم على صورته، باعادة الضمير على الله تعالى، و هو من [صفحه ۸۸] بعض محتملاته. و لقد بنى‌الصوفية على هذه الأبيات و على غيرها من الأقوال المنسوبة الى أبى‌هريرة و الامام على غالب نظريات التصوف، و سنعرض لذلك بالتفصيل فى فصل مستقل ان شاء الله. و يرى الامام زين‌العابدين أن الضحك للعلماء يذهب بعلمهم، و يجردهم منه رويدا رويدا ما دام هناك اصرار عليه فيقول: «من ضحك ضحكة مج من العلم مجة». و هو يريد بالضحك القهقهة و الاغراق، و لا يريد به الابتسام الدال على الاعجاب، أو على شعور بالسرور، فقد كان الابتسام من صنيع النبى صلى الله عليه و سلم دون القهقهة التى تكشف عن خفة فى الطبيعة، و طيش فى الشعور، و ليس ذلك من سمات العلماء و لا الأنبياء. و انما كان ادمان الضحك وسيلة لاستنزاف العلم لأن دواعيه غالبا ما تكون من خلائق أهل البطالة و السخرية، كما أن الاغراق لا يكون الا عن تفاعل عميق مع هذا الباطل، و التفاعل العميق مع الباطل الساخر يحد من الرغبة فى الفقه العميق فى مسائل العلم التى لا- تنمو الا- فى جو فى الصمت و الفكر، و مجانبة البطالة، و القرب من درجة التبتل فى محراب العلم و المعرفة. فكل دفعة من الضحك تدفع معها قدرا من ملكة البحث العلمى الى خارج القلب، لتحل مكانها نظرة عميقة تهدف الى استكشاف ما فى حديث أهل البطالة من الاضحاك. و اذا كانت دعوة زين‌العابدين للعلماء الى الجدية فى الفكرة، و الى هجران البطالة لم تكن قد اتخذت مكانها الحق فى عصره، فان هناك من استجاب لها من كل قلبه، و اندفع فى البكاء و التفكر فى الموت و فيما بعده كوسيلة لاستبقاء هذا الشعر الجاد بمسئولية العالم نحو علمه، و نحو صيانته من كل شبهة تخرجه عن قداسته، و عن رسالته فى هداية الآخرين. و كان من مشاهير البكائين فى عصر زين‌العابدين: الحسن البصرى، و من بعده مالك ابن‌دينار، ثم سفيان الثورى و سائر زهاد الكوفة من بعد، مما أبقى على جوهر السمت العلمى المراد من علماء الاسلام.

الفكر، و الاعتبار بالموت

كان على بن الحسين اذا رآى الجنازة تمثل بالبيتين الآتيين: [صفحه ۸۹] نراع اذا الجنائز قابلتنا و نلهو حين تمضى ذاهبات كروعة ثلة لمفار سبع فلما غاب عادت راتعات و هو يهدف من تمثله هذا الى نقد الوعى الدينى فى قلوب المسلمين، اذ تخلو عن ادمان الفكرة فى الموت و ما بعده، فلم يعد الموت يسيطر على تفكيرهم الا لحظات عابرة تكون عند لقاء الجنازة، ثم لا يلبثون أن تجترفهم الحياة بزحامها و دواعيها فينسون ما كان يجب أن يذكر. و التذكر العميق للموت و ما بعده فرع من أصل «الفكر» الذى دعا اليه الاسلام كأدب سلوكى له أثره البالغ فى تكوين شخصية رجل الحضارة الاسلامية و أخلاقه التى لا تتم صلاحيته لرسالته الا بها. لقد حث القرآن الكريم على الفكرة فى آيات كثيرة فقال تعالى: (ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون). و قال: (و يتفكرون فى خلق السموات و الأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار (۱۹۱)[آل عمران:۱۹۱]. و كان النبى صلى الله عليه و سلم و صحابته أهل فكرة يخلون اليها، و يتعمقون فيها، و يعتبرونها ذكرا خفيا هو أجدى بكثير من الذكر العلنى، لأنها من أعمال القلب التى لا يطلع عليها الملائكة الكابتون، كما أنها من الأعمال التى يتولى الله تعالى مكافأة العابد عليها عطاء جزلا من معين الكرم الالهى الذى لا ينضب له معين. و على الفكرة درج آل البيت، و تبعهم جمع كبير تبنوها سلوكا، و دعوا الناس اليها، و أفردها المؤلفون القدامى بأبواب مستقلة فى كتبهم، كالحارث بن أسد المحاسبى فى «أعمال القلوب و الجوارح»، و أبى‌طالب المكى فى «قوت القلوب»، ثم الغزالى فى

«الاحياء». و ممن عنى بها و بغيرها من عناصر وعى الروح و دسائس النفس فيه: أبوالسعود بن أبى‌العشائر، و له أقوال تستحق البحث فى كتب التراجم المختلفة. و قد حدد زين‌العابدين أثر الفكرة فى بناء شخصية المسلم فقال: «الفكرة مرآة المؤمن، يرى فيها سيئاته و حسناته». أى انها الميزان الصادق الذى يزن به المؤمن نفسه نفسه، و يلمس مواطن الضعف فى أعماقه، و يحاول على أثر ذلك أن يعود الى حال من التوازن النفسى فلا يجمح به غرور، [صفحه ۹۰] و لا يقنطه خطأ. تلك كانت حاجة العصر فى زمن الامام، فقد جمح الغرور بالكثيرين من ذوى الخطر، فلم يروا لهم سيئة، و استفطموا مالهم من حسنات، و اختلط الأمر على البعض فأصبح بعد الخطأ صوابا، و لا أدل على ذلك كله من اعتقاد أولى الأمر سلامة مسلكهم فى سب الامام على و ذريته على المنابر. كما كانوا لا يريدون أن يقتربوا بأفكارهم من الموت و ما بعده الا لفترات قصيرة عند شهود جنازة. و لم نعثر للامام السجاد على منهاج للفكرة فى أقواله يحدد معالم الطريق التى يسلكها العابد سوى: الفكرة فى تدبر السيئات و الحسنات، و فى الموت. و هذا المنهاج شامل لكل ما استقصاه العلماء بعد السجاد من عناصر الفكرة و فروعها، فكلها عائدة الى هذين الأصلين اللذين حددهما زين‌العابدين فى تركيز ينم عن عقلية واعية مركزة و قلب ذكى يتقن تحذير الأصول، و يكتفى بها عن التوسع فى الشرح و التفصيل. و لقد حدد الحارث المحاسبى عناصر الفكرة فى «أعمال القلوب و الجوارح» فحصرها فى: «فكرة فى عظمة الله تدعو الى التوحيد، و فكرة فيما يقرب الى الله من أعمال، و فكرة تكشف نفاق النفس أو اعتدالها على الطريق، و فكرة فى الموت و ما بعده». و تلك كلها كما ترى عائدة الى الأصلين اللذين حددهما الامام لا يشذ عنهما لون من ألوان الفكرة. هى المحاسبة للنفس أولا، و ذكر الموت و تمثله ثانيا، و قد يكون ذكر الموت مقدما على محاسبة النفس اذا اجحمت النفس عن مواجهة خطاياها ففرفت بصاحبها عن المحاسبة، فما من فكرة تجدد ملكة المحاسبة فى النفس الا ذكر الموت الذى يعيدها ما بعده من هول و مواجهة اليهة، و محاكمة عادلة الى المحاسبة التى تقوم بدورها الهام فى تعديل سلوك الانسان. و مما هو جدير بالذكر أن ابراهيم بن أدهم قد حمل لواء الدعوة الى الفكرة من بعد الامام زين‌العابدين حتى جعلها رأس عبادته، أثيرة لديه على طول القيام بالليل، و دعا اليها أصحابه و مريديه، و نزع بها الى وعى صوفى جديد عبر عنه حينما سئل و هو خارج من الجيل: من أين أقبلت؟ فقال: «من الأنس بالله». [صفحه ۹۱]

مكانته فى التصوف

تبدأ أهمية الامام على بن الحسين فى التصوف من نقطة البداية البارزة فى سلوكه و سمته حين اقامة الصلاة، و من تلك الرعدة التى كانت تلم به بين وضوئه و صلاته، ثم من بكائه و زهده القلبى الذى لا يتجه نحو الظاهر، و غير ذلك من المسالك التى عرضنا لها اثناء هذا البحث و التى انتهجها الصوفية فى صورة زهد بسيط يتسلح بتلك لمواجيد، ثم تبناها الصوفية من بعد، و تعهدوها بالرعاية و النماء، و رسموا لها طريقا يتعهد غراسها فى الأجيال المستقبلة على مدى الأيام. و قد ظهرت أهمية الامام السجاد بعد تنظيم التصوف فى طرائق و طقوس معينة: فقد دخل الى سند الخرقة حيث لبسها من أبيه الحسين، عن الامام على عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، و ألبسها هو لابنة محمد الباقر، و لبسها منه جعفر الصادق، و لبسها منه موسى بن جعفر الكاظم، و لبسها منه على بن موسى الرضا، و ألبسها الرضا لمعروف الكرخى، و منه الى سرى السقطى، و منه الى الجنيد البغدادى الذى تنتهى الى طرائق التصوف و اسانيد الخرقة جميعا. و لذكر المراجع الشيعية النزعة كما جاء فى طرائق الحقائق: أن الطريقة الحقة جرت بواسطة اربعة أولياء من المختصين بآل البيت، ثم انتشرت بين العباد و البلاء، و تذكر من لينها: السلسلة الأدهمية، بواسطة سيد الساجدين على بن الحسين، و منه الى السطان ابراهيم بن أدهم. و اذا كان زين‌العابدين لم يترك لنا الا قليلا من الأقوال التى تمت الى السلوك الصوفى متأخر بالقربى فانما كان ذلك لعنايته البالغة بالسلوك العملى، و تصحيح القلب من مراضه العائقة عن قبول العمل و الاستفادة منه، و مع ذلك فقد تلقف الصوفية كلماته من بعده، و تحدثوا بها على صورة أخرى لا تخرج عن معناها، و من أمثله ذلك قول الامام: «ان الجسد اذا لم يمرض أشر، و لا خير فى جسد يأشر». فقد اقتبسها و قال: «ان القلب اذا لم يحزن خرب». ولكن اهتمام الصوفية بالنسبة للامام السجاد قد اتجه

اتجاها عمليا كان و قوامه مواجيده العميقة التى كان يتلبس بها بين وضوءه و صلاته، و أدعيته و مناجاته المأثورة [صفحه ۹۲] عنه، و بكاؤه، و قوام ذلك كله أنه بقية آل البيت النبوى الذى نجا من سيف الأمويين، و منه كانت سلالة النبى الطاهرة و من أبناء عمه الحسن بن على رضى الله عنهم جميعا. كانت هناك حيرة كما قلنا تساور المؤمنين وسط تلك العواصف التى أثارها بنوأمية باستثناء عمر بن عبدالعزيز، واتجه الكثير من الناس اتجاها ماديا، و أوشكت روحانيات الاسلام أن تجنو جذوتها لولا أن تبناها الامام السجاد، فانتقلت منه الى أعيان العصر كالحسن البصرى و غيره ممن نقلوها بدورهم الى تلاميذهم حتى تبلورت فى سلوك مدروس منظم على أيدى الصوفية. و كانت السمات التى دعا اليها زين‌العابدين تتلخص فى: ۱ - تجريد الباطن من حب الدنيا، و صرفها الى مستحقيها و الاكتفاء منها بالقليل. ۲ - اخفاء الأعمال، و الحرص على اخفاء الوجدان الدينى تفاديا للنفاق و الرياء. ۳ - الدعوة الى السلوك الدينى الأصيل فى مواجهة أى انحراف يطرأ على الناس فى أى عصر من العصور. و قد أحسن أخلاف الامام من طلابه و مريديه القيام عل مبادئه هذه، و كان هناك من اختاروا لأنفسهم من بمادئه الثلاثة هذه مبدأ الخفاء و مبدأ رعاية الوجدان، و أهملوا الدعوة فلجأوا الى الخلوات فى بطون الجبال و أعماق الصحارى فرارا بدينهم و بأنفسهم من زحمة الحياة و سحرها. ولكن ثلاثة ممن اتصلت حياتهم بعصر الامام كانوا أعلام هداية على طريقة الذى رسمه قبل وفاته واضحا لاعوج فيه، و هم: ابراهيم بن أدهم، و سفيان الثورى، و مالك بن دينار. أما ابراهيم بن أدهم فقد ضرب المثل الأعلى فى التخلى عن الدنيا حين نزل عن الامارة و عن ثرائه العريض، و عاش حصار بسيطا، أو حارسا للبساتين، و يعيش من عمل يده و يتحاشى أن تكون عليه مؤنة لأحد بالغة ما بلغت، ثم أضاف الى منهج الامام تجريد ظاهره هو الآخر من كل ما يمت الى حب الدنيا، و كان ذلك حتما حين اختلط أهل التجريد الباطن بالمدعين للصلاح، المتخذين من دعوى تجريد الباطن وسيلة للغش و الخداع، لا سيما و أن فاخر اللباس كان قد اشتهر و أصبح مظهرا لعامة الناس من التجار و طلاب المال. و طور ابن‌أدهم كذلك مبدأ الايثار و الصدقات الخفية، فجعلها ايثارا بالجهد [صفحه ۹۳] الشخصى اذا كان يطحن بيده للأرامل و العجزة و يعين الضعفاء على العمل و يدع لهم أجورهم. وجهر بمعارضته للسلوك المفرق فى حب الدنيا، و وجه معارضته للحكام و الأغنياء فى أسلوب مقنع، فسمى الحكام «الملوك» و سمى الأغنياء «المساكين». و كان فى كل ذلك من كبار أهل الوجدان الذين اختاروا الفكرة أساسا و منبعا له لا يفيض على قلوبهم الا منها. و أما سفيان الثورى الذى كان معاصر الابن أدهم و صديقا له فقد أعلن ثورته على أجهزة الحكم، و لقى من ثورته هذه المتاعب القاسية، اذ أصبح مطلوبا لشرطة الخليفة لا يستقر فى مكان حتى يرحل عنه فرارا بدعوته، حتى كان موته فى البصرة مختفيا فى دار أبى‌منصور السليمى. ولكنه لم ينزع نحو مسلك ابن‌أدهم فى الجوع الشديد، و تدريب الطلاب على الحرب، بل كان الى جانب تجريد الظاهر من اللباس الفاخر، و الاكتفاء بالقليل الرخيص منه لا يحث على الحرمان من طيبات الحياة، بل يحث على التقلل من هذه الطيبات، و كان هو الآخر بكاء متفكرا يؤرقه الفكر فيما بعد الموت فيفزع فى جنح الظلام باكيا فزعا من هول ما عاين و أيقن. أما مالك بن دينار فقد كان واعظا خرج بالزهد من عزلته الى عالم الظهور، فوق أنه تبنى دعوة سياسية صريحة قوامها ترهيب الطغاة من الحكام، و تذكيرهم بما ينتظرهم من عسير الحساب. و هكذا كانت سيرة زين‌العابدين جزءا هاما من مكونات الشخصية لهؤلاء الأبطال الثلاثة، و كانوا خير خلف لخير سلف، أخلصوا دينهم لله، و دعوا الى وجهيه المادى و الروحى، و لم يخلطوا أفكار الاسلام الأصلية بالفكر الدخيل الذى كان له أسوأ الأثر فيما بعد على الفكر الصوفى الذى كانت مهمته الرئيسية هى: نقل الاسلام صريحا واضحا خاليا من كل زيع، و الأخذ بأيدى الملايين الى الله فى تضامن و تآزر يؤكد روح الحضارة الاسلامية، و يسعى لاسترداد مكانتها فى قمة التاريخ. ولكن التوازن قد اختل فيما بعد بين مواهب الروح و مواهب العقل، فتطور السلوك الصوفى الى نظريات كان لها فعل السحر بين العامة و الخاصة، فشدت انتباه الجميع على وجه التقريب، حتى أصبح التصوف نظريا أكثر منه سلوكيا، و خمدت جذوة الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى، و علل هؤلاء النظريون أنفسهم بالمهدى المنتظر، و بالحكومات الباطنية التى تقوم بدلا منهم بالعزل و التولية حسبما تقتضيه ظروف دولة الاسلام. [صفحه ۹۴] كان شأن السلوك شأن كل مظهر من مظاهر دولة الاسلام يسير فى طريق من طريقين: اما طريق التطرف و الغلو، و اما طريق

التفريط و الاهمال. و كان خط السلوك من هذين الطريقين هو التفريط فى العمل، و التطرف فى النظريات. و قد حاول بعض المتأخرين من الصوفية أن يصرف أنظار الباحثين عن استناد طريق التصوف فى زين‌العابدين بواسطة ابراهيم بن أدهم فجعلوها تستند الى جعفر الصادق، أو الى على بن موسى‌الرضا، و من العجيب أن تكون سلسلة الطريق من أبى‌يزيد البسطامى عن جعفر الصادق فى بعض الأسانيد، مع استحالة لقائهما، اذ توفى الصادق عام۱۴۸ و توفى أبويزيد البسطامى عام. ۲۶۱ و أحيانا جعلوا السند عن معروف الكرخى عن على بن موسى بن جعفر الصادق. و هو كما ترى محاولة لصرف الأنظار عن سند ابراهيم بن أدهم عن زين‌العابدين، لأن هذا السند الأخير لا يدع فرصة للتطرف و لا للتخاذل فى أى شأن من شئون السلوك و الوجدان، كما أنه محاولة للجنوح الى أسانيد أفرط رجالها فى الكلام عن المواجيد و كانوا صادقين فى حديثهم، ولكنهم استندوا اليهم كوسيلة لايجاد مبرر للكلام فى المقامات و الأحوال، لا يجدونه لا عند ابن‌أدهم، و لا عند زين‌العابدين. لقد كان زين‌العابدين هو المرجع الأول للصوفية المتأخرين، و كان هو الرأس العلوى الزهد الاسلامى الأصيل، و للوجدان الاسلامى العميق، الذى لم يفتح بابا للكلام، من حيث فتح الأبواب كلها للعمل. و لئن كان من أحفاده من أثر عنه حديث متطرف فى علوم الحرف، و علوم الباطن فان المرجع و المقياس هو زين‌العابدين وحده، و ما كان هذا التطرف فى أسرار الحروف الا لخدمة أهداف شيعية رآى الصوفية أن يأخذوا بها فى سلوكهم و نظرياتهم، و يسيرون فى نفس الطريق الى آخره. و لنأخذ لذلك مثلا مسألة الصحبة. فالصحبة مبدأ اسلامى أصيل يقضى بوجوب التجمع بين الفئات الصالحة لله و فى الله، كما يقضى تبعا لذلك بهجران الفئات الفاسدة، و قد رأينا زين‌العابدين يرسم الخطوط العريضة لمبدأ الصحبة، و يحذر من بعض الناس، و يحدد الصلات الواجبة بين المؤمن و أخيه و بينه و بين مجتمعه كله. فالصحبة فى الله هى الشعيرة الاسلامية الأصيلة، و قوامها الأصيل الذى حدده الاسلام هو: التعاون على مرضاة الله، و على البعد عن مكارهه، أى هى: الأمر و النهى و النصح. [صفحه ۹۵] و تلك هى صحبة الأكفاء المتناظرين فى المنزلة و المكانة، ولكن هناك صحبة اسلامية أصلية أخرى هى: صحبة الانسان لمن فوقه علما و عملا، و تقتضى هذه الصحبة من المتبوع: الشفقة و الرحمة و لنصح، و من التابع الوفاق و حفظ الحرمة و حسن الاستماع و الطاعة فيما لا معصية فيه. و كان الشيوخ بعد زين‌العابدين من أمثال الثورى و ابن‌أدهم و داود الطائى و غيرهم يؤكدون مبدأ النصح و الشفقة على الاتباع، و لا يتخذون لأنفسهم مقاما فوق مقاماتهم، و لا يحيطون أنفسهم بالأسرار و الأحاجى، و كان الوضوح هو البدء و النهاية فى السلوك و الارشاد، و كان التواضع من الشيوخ، و الحب من الطلاب، و التقليد للشيوخ فى كل ميادين العمل سمة لازمة للجميع لم يشذ عنها شيخ الا ما كان من داود الطائى الذى كان مضربا عن الاجتماع بالناس، فكانوا ينتظرونه أياما حتى يتمكنوا من لقائه، و كان هذا الاعتزال من داود ناشئا من اغراقه فى الاستجماع الفردى، و خوفه على نفس من انتفاعل مع الناس، و لم يكن ناشئا عن اصطناع أسرار، أو دعوى مقام معين من مقامات السلوك التى نشأت من بعد ذلك. و من عجيب أمر الناس فى نهاية القرن الأول الهجرى: أنهم كانوا أشد استماعا لكل ما هو سرى أسطورى من المعارف و العلوم منهم الى الاستماع للأوامر الصريحة الصادرة فى الكتاب و السنة للجميع بالعلم و العمل، و عدم الاندفاع وراء الأسرار، و التشدق و التفيهق، فقد أكد القرآن الكريم أنه (لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس (۱۱۴))[النساء:۱۱۴]. ولكن العجب ينقضى أو يكاد ينقضى اذا تلمسنا الأسباب الكامنة وراء هذا الفتور من جهة، و وراء الاندفاع وراء الأسرار، و المضى فى تيارها المتطرف، فوجدنا أن الشعب الاسلامى كان قد أصيب فى ذلك القرن بثلاثة من المشاعر أملتها ظروف سياسية هى: ۱- الندم على التفريط فى نصرة الامام على و آل بيته. ۲- و الحب الكامن لله و رسول و آل بيته. ۳- و الشعور بالاضطهاد و الذل عقب اعلان زيد بن أسلم بعد قتل الامام الحسين رأيه الصادق حين قال: «قتلتم ابن‌بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم، و أمرتم ابن‌مرجانة، أنتم والله العبيد بعد اليوم». و أعلن ما سيقاسيه المؤمنون من اضطهاد حين قرر أن بنى‌أمية سيقتلون خيار الناس، و يستذلون شرارهم. و ليس بعد ذلك ذل لاحق بأمة كان قوام [صفحه ۹۶] دستورها الأمر و النهى، و بهما استحقت أن تكون خير أمة أخرجت للناس. كان الندم عاملا من عوامل العزلة و الأنفرادية الوجوم و الهم اللاحق، كما كان الشعور بالاضطهاد عاملا من عوامل الاحجام عن مواجهة الحقيقة، و باعثا من بواعث اهمال الأمر و النهى، و

ترک العامة فوضى لا سراة لهم، و لا مر شد يحجبهم عن الخرافة، و التعلق بالخيال و الأوهام كبديل عن الحرية التى افتقدوها، و عن غرة الاسلام الممنوحة للعاملين. و كان الحب الى ذلك كله يذكى جذوة التطلع الى تعبير عنه، لم يكن التعبير عنه كامنا فى تقليد المحبوب و السير بقدر ما كان اغراقا فى اضفاء الأسرار عليه، و التطرف فى هذا الاغراق. كان هناك حب دون شك، و كان هناك تطلع دون شك، و لم تكن هناك عزيمة تعين على العمل دون شك، و لم يجد العامة متنفسا الا فى فكرة تجديد الاسلام التى نادى بها أبوهاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية (ت۹۷) المعاصر لعمه زين‌العابدين، و الذى شرد عن تعاليم أبيه و أعلن رأيا كانت له خطورته فى مجال التصوف. خرج أبوهاشم هذا و هو علوى غير فاطمى - على المسلمين بنظرية رواها ابن‌سعد فى طبقاته، و ابن‌خلدون فى العبر، و روتها كتب النحل الاسلامية قال فيها موجها كلامة الى محمد بن على بن عبدالله بن عباس: «لم يمض مائة سنة من نبوة قط الا انتهت أمورها، لقوله عزوجل: (أو كالذى مر على قرية و هى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه)[البقرة:۲۵۹]فاذا دخلت سنة مائة فابعث رسلك و دعاتك، فان الله متمم أمرك». و قد تلقف الصوفية هذه النظرية فأسبغوا على شيوخهم صفة تجديد الدين، و لقب الكثير منهم بمجدد الدين، أو مجدد المائة، و لم يقتصر الأمر على ذلك، بل تعداه الصوفية الى اقتباس أفكار أبى‌هاشم هذا التى تدعى أن لكل ظاهر باطنا، و لكل شخص روحا، و لكل تنزيل، تأويلا، و لكل مثال فى العالم حقيقة،و المنتشر فى الآفاق من الحكم و الأسرار مجتمع فى الشخص الانسانى، و هو العلم الذى استأثر به على عليه‌السلام، ثم ابنة محمد بن الحنفية، ثم أفضى بذلك السر الى ابنه أبى‌هاشم، و كل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الامام حقا، و على ضوء هذه النظرية أسبغ الصوفية على الشيوخ صفة الاستئثار بالعلم اللدنى، و علم الأسرار الالهى، حتى عد الشعرانى منها ما ينوف من [صفحه ۹۷] عشرة آلاف علم. و مضى أبوهاشم فى خروجه عن نطاق المنهاج الذى رسمه آل البيت النبوى فأشار على محمد بن على بن عبدالله بن عباس الذى يتفق معه فى مقاومة الأمويين: أن يختار دعاته فليكونوا اثنى عشر نقيبا، فان الله لم يصلح بنى‌اسرائيل الا بهم، و سبعين نفرا يتلونهم، فان النبى انما اتخذ اثنى عشر نقيبا من الأنصار اتباعا لذلك. و هكذا أصبح شيوخ التصوف ممتازين عن سواهم بالعلم السرى، و بصلاحيتهم للاجتهاد فى تجديد الدين، و بحريتهم فى اضفاء الألقاب على المريدين، و من ثم أصاب نظام الصحبة الاسلامى تغيير جوهرى تطور فيما بعد الى نوع من الافراط و الغلو. و لم يكن لهذا التطور أصل فى سلوك زين‌العابدين و معاصريه من أبناء عمه الحسن، و كانت الحالة النفسية الناشئة من تداخل الشعور بالندم و الاضطهاد و الحب عاملا رئيسيا فى اندفاع الكثيرين من رجال التصوف نحو الشطط ما دام لهم مستند فى تجديد الاسلام و العلم السرى. و كان هذا الشطط هو الذى دعا الحارث ابن‌أسد المحاسبى الى مهاجمة الصوفية فى عصره و اتهامهم بالكذب فى دعوى الحب، اذا أنهم لا يلتفتون الى سلوك المحبوب، و لا يكلفون أنفسم عناء تقليده فى العمل الذى يعتبر الدليل الأول و الأخير على صدق دعوى الحب. كما رماهم فى كثير من المواضع من كتابه «آداب النفوس»، و «أعمال القلوب و الجوارح» بأن فيهم غلطة وجهلا بالأخبار. و يبدو أن فكرة الانتقال من مكان الى آخر فى لمح البصر، و فكرة رؤية الملائكة و مخاطبتهم كانت قد برزت فى عصر المحاسبى، لأنا نراه يهاجمها هجوما عنيفا فى كتابه آداب النفوس. و وجد الصوفية فى هذا الميدان الجديد بديلا من المجاهدات الشاقة فأمعنوا فى دعوى الأسرار حتى أن بعضهم كان يصلى فى الكعبة و هو بعيد عنها بآلاف الأميال، و يعود فى نفس الليلة على الصورة التى بنى عليها المحاسبى هجومه العنيف على القائلين بها. و نحن لا نحجر على فضل الله بانكار الأسرار، و انما نقول: ان اذاعتها على هذه الصورة فتح باب الدعوى على مصراعيه، فادعى الكذابون ما ادعى الشيوخ، و اختلط الصادق بالمنافق و له فى دعوى السرية حصن حصين. و اضطرب نظام الصحبة الذى يعتبر أساس التصوف كما يعتبر أساس الحياة الاجتماعية فى الاسلام، حتى لقد روى عن ذى النون المصرى أنه قال: «ليس مريد ألبته [صفحه ۹۸] من لم يكن أطوع لأستاذه من ربه». كما روى التشيرى عن الأستاذ أبى‌على الدقاق أنه كان يتساءل: «هل يحتمل أن يكون مقام النبى الذى يبعثه الله فوق مقام شيخه؟». ولكن السهروردى فصل فى هذه القضية بما يقرب من الصواب، و بما يكشف عن حقيقة هامة فى مسألة الصحبة و امتزاج الأرواح و تلاقها فقال فى عوارف المعارف، العوارف: «اذا دخل المريد الصادق تحت حكم الشيخ و صحبه، و تأدب

بآدابه، يسرى من باطن الشيخ حال الى باطن المريد، كسراج يقتبس من سراج. و كلام الشيخ يلقح باطن المريد، و يكون مقام الشيخ مستودع الحال، و ينتقل من الشيخ الى المريد بواسطة الصحبة و سماع المقال». و الواقع أن هذا الذى يذكر السهروردى صحيح، ولكن اتخاذه أصلا للسلوك، و الاقامة عليه، و العناية بالحال السارى من الصاحب الأعلى مقاما الى الصاحب الأدنى، و عدم استخدام هذا الحال فى الاستزادة من العمل هو الخطر الداهم الذى جاء به هذا الاتجاه الجديد فى وقت لم يكن الناس بحاجة اليه بقدر ما كانوا بحاجة الى العمل البسيط الخالى من التعقيد. و لقد كان الصحابة أنفسهم يحسون هذا الحال السارى اليهم من النبى صلى الله عليه و سلم، و كانوا ينكرون أنفسهم حينما يفارقون مجلسة الى أعمالهم المعاشية، و كانوا يتعهدون هذا الحال فيهم، ولكن لم يؤثر عنهم أنهم أتخذوه موضوعا للحديث، و أساسا للبحث و الفحص يطغى على العمل الذى كرسوا حياتهم من أجله. و كانوا يبكون، و كانوا يشهدون الغرائب حين تلاوتهم للقرآن، و حين الصلاة، ولكنهم لم يتخذوا من ذلك الوجدان و لا- من تلك الغرائب موضوعا لأحاديثهم، كما لم يحاولوا الاندفاع وراءها، و انتظارها، و لا قياس أنفسهم بورودها. كانت حضارتهم صاعدة، و كانت أعمالم كلها مكللة بالنجاح، و مع ذلك لم يقعدوا عن العمل، و لم يثرثروا بالأحوال و المقامات، و لم يحيدوا عن منهاج العمل المرسوم الذى نقله المحاسبى فى أعمال القلوب و الجوارح مرتبا حسن أهميته عندهم، فجعل معرفة الله تعالى فى الدرجة الأولى، و تتبعها اقامة الصلاة، ثم ارفاق بعضهم بعضا، و السعى على الأرامل و المساكين من اخوانهم. فهل كان المسلمون بحاجة الى ترديد الحديث عن المقامات و الأحوال و حضارتهم تتدهور عن قمتها فى سرعة، و الوعى الدينى يكاد يمحى من القلوب، و الدنيا بقتل، [صفحه ۹۹] و القلوب تنعقد على حبها؟ و لا نعتقد أن يقول بهذا أحد، ولكن الذى كان المسلمون بحاجة اليه هو احياء السنة، و التزام الكتاب، و العكوف على هذين الأصلين لا- يتعدوهما الى ما سواهما، و الاحتفاظ بالمواجيد و المشاعر التى سميت فيما بعد بالأحوال لا يذيعها انسان لأخيه، و لا يتخذ منها مقياسا لنفسه و لا لغيره. ولكن الله تعالى أراد بحكمته أن يتم الشوط الى نهاية لحكمة تربوية عليا هى أن يتم اقتناع المسلم بفساد هذه الطريقة من داخل نفسه، حينما يرى النتيجة العملية لاهمال العمل، و العدول عنه الى النظريات. و مما يوسف له أن يتطور هذا السلوك الى ثرثرة لا- يحيد عنها مريدوا طريق التصوف فى رواية الكرامات و الأسرار و دعوى الصدق، و اسباغ القطبية على الشيوخ، و الشيوخ بدروهم فى كثير من الأحوال ينفعلون لهذه الألقاب و كان ما كان من انحراف الطريق الصوفى عن جادته الأولى التى رسمها آل البيت، ولكنهم الآن بدأ يفتحون عيونهم على تركه منحوسة من الهوان فى العصر الحاضر، فبدوا بحمدالله فى تنقية الطريق من الأشواك، و تيسيره للسالكين سنيانبويا يعود الى ما كان عليه النبى صلى الله عليه و سلم و صحابته وال بيته، و من هنا كانت أهمية احياء سيرة آل البيت النبوى، لتكون نبراسا ينير الطريق للسالكين على الحق بعد انقضاء التجربة التى لم يكن عنها محيص، و التى كانت لها بركات فاضت من الله عالى شأنه فى كل نعمة و فى كل بلية. واية تلك البركات التى تمخضت عنها بلية التحول النظرى من المنهج العملى ظهور دراسات نفسية عميقة فى ميدان السلوك الصوفى لا يستغنى عنها رجال الحضارة الجديدة فى عودتهم الى منهاجهم الأول. لقد جد التابعون لآل البيت فى استقصاء علل النفوس و القلوب الداعية الى التخاذل فى العمل، أو الى الخروج به عن طريقه الصحيح فدونوها فى صورة وصايا أو فى صورة موازين فارقة بين حق العمل و باطله من الوجهة القلبية، واهتدوا فى وصاياهم و موازينهم بالسنة النبوية و بالقرآن و بما أثر عن الصحابة وال البيت، و عنى بتلك الدراسات البادئة كثيرون من السلف منهم: الحسن البصرى، و مالك بن دينار، و الثورى، و ابن‌أدهم، و غيرهم كثيرون امتازوا بالدقة فى الفقه، و العمق فى كشف خفايا النفوس و تقلباتها. ثم جاء أستاذ الدراسات النفسية الاسلامية الحارث بن أسد المحاسبى فجعل لآفات [صفحه ۱۰۰] النفوس و القلوب أبوابا مستقلة تعهدها بالبحث و الاستقصاء و العمق، كما حدد معالم العمل الصحيح و مقوماته فى أبواب مستقلة كذلك، و كانت بحوثه هذه بداية دراسات نفسية منظمة تعنى بالتحليل، و الخوض وراء أعماق النفس، و تتبع حركاتها و أساليب خداعها لصاحبها، فأصبح للسلوك عدة علمية؛ كما كان للعمل عدة شرعية تعنى بالشروط و الأركان و تصحيحه من الوجهة الشكلية. و تلك البحوث و الدراسات و ظهورها على هذه الصورة من العمق و الثراء دليل على أن هذا التحول الذى حدث بعد عصر الراشدين كان أمرا طبيعيا، اذ

أن المذاهب العظمى لا- تمضى فى طريقها المراد لها الا بعد أن يصيبها اضطراب و زلزال بادىء الأمر. لقد أصاب الناس فى حمل الشريعة نفس الأضطراب و الزلزال ممثلا فى الردة التى حدثت بعد وفاة النبى صلى الله عليه و سلم، و أصاب الناس اضطراب و زلزال فى السلوك بعد عصر الراشدين و بعد عصر زين‌العابدين بالذات باعتباره آخر الأئمة الملتزمين بمنهج العمل دون منهج الكلام. و كان لزلزال الشريعة رادع هو السيف، و لم يكن لزلزال السلوك رادع سوى الزمن و التجربة المرة التى خاضها المسلمون الى وقتنا هذا. فالسلوك و آقامة أمور قلبية ليس للسيف عليها سلطان. كان الزلزال الذى أشار القرآن الكريم الى ضرورة اصابة المؤمنين به لتمحيص ايمانهم دليلا على جسامة شأن الايمان و الاخلاص و علوهما عن ادعاء المدعين، فدخل الناس تجربة طويلة تمخضت عن دراسات و موازين نفسية هامة كان لابد منها فى عصرنا الحاضر لاثبات غنى الاسلام عن دراسات النفس المستوردة التى لا زال الناس يتعلقون بها، بينما لم يحاول عالم من علماء المسلمين أن يجمع ما تناثر من تلك الدراسات فى كتاب مستقل يكون مادة لبحوث اسلامية بحتة، اللهم الا- ما حاوله الأستاذ العلامة مصطفى بن كمال‌الدين البكرى فى كتابه المخطوط «العرائس القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية». و هكذا تكمن النعمة فى البلية فى النعمة، و «عسى أن تكرهوا شيئا و هو خير لكم، و عسى أن تحبوا شيئا و هو شر لكم». فما يظنه بعض الناس شرا من اهمال مناهج آل البيت، و المضى فى المناهج النظرية كان خير بظهور الدراسات النفسية الاسلامية البحته، حتى تكون العودة على أسس سليمة من موازين الاسلام الخالصة. [صفحه ۱۰۱]

وفاته

لقد كان استعداد الامام للموت و وصيته فيما يصنع به بعد موته أصلا هاما من أصول السلوك يمكن أن يكون أصلا هاما من أصول السلوك يمكن أن يكون أصلا لا يحيد عنه الانسان. فقد أوصى فى رواية ابن‌سعد: «ألا يؤذن بموته أحد، و أن يكفن فى قطن، و أن يجعل فى حنوطه مسك، و أن يسرع به المشى». فعدم الايذان بموته ايثار منه للخمول، و مجانبة منه للشهرة، و اغلاق لباب الغلو الذى كان قد انفتح و يوشك أن يشمل القيم الاسلامية كلها. فاذا كان جده الأعلى صلى الله عليه و سلم يحب أن يؤذن اذا مات أحد الأصحاب، و يحب أن يجتمع الناس على جنازته انتهازا للثواب، و رجاء نفع الميت بدعاء اخوانه و صلاتهم عليه، فانما كان ذلك و الغلو مغلق الأبواب، و الخير مقبل، و الشر مدبر. أما زين‌العابدين فقد كان بصيرا بعصره، خبيرا بمسالك الفتن فيه، فآثر أن يجتهد برأيه و يؤثر خمول الذكر على شهرة الموت التى قد تكون بابا من أبواب الشر لم يشأ أن يسهم فى فتحه، و قد انفتح بالفعل بعده فيما نرى من دعاوى العامة عند موت عالم أو ولى من أولياء الله تعالى. و كانت وفاة الامام فى سنة أربع و تسعين، فى أولها عن ثمان و خمسين سنة. فى سنة الفقهاء. التى اشتهرت بهذا الاسم لكثرة من مات من الفقهاء فيها، كسعيد بن جبير و سعيد بن المسيب و غيرهم. و قال أبونعيم الفضل بن دكين: توفى سنة اثنتين و تسعين. و قال بعضهم: سنة ثلاث و تسعين، و أغرب المدائنى فقال انه مات سنة تسع و تسعين. و الأول هو المشهور. و لما وضع الامام ليصلى عليه، اجتمع اليه الناس من كل فج ليشهدوه، و بقى سعيد بن المسيب وحده فى المسجد. فقال له: خشرم: ألا تشهد هذا الرجل الصالح فى البيت الصالح؟ فقال سعيد: أصلى ركعتين أحب الى من أن أشهد هذا الرجل الصالح فى البيت الصالح. و يبدو أن الناس قد ظنوا أن ابن‌المسيب يؤثر صلاة التطوع على شهود الجنازة، لأن [صفحه ۱۰۲] سليمان بن يسار خرج الى الجنازة فصلى على الامام، و تبعه و هو يقول: «شهود الجنازة أحب من صلاة التطوع». و الحق أن ايثار ابن‌المسيب للصلاة لم يكن ناشئا عن جفاء للامام، و لا عن تفضيل لصلاة التطوع على شهود الجنازة، لأن ابن‌المسيب كان فيما يغلب على الظن قد أحس دنو أجله، و عاين النهاية المحتومة، لأنه مات بعد الامام بقليل، و للمؤمن دلائل و علامات ترهص بانتهاء أجله نعرفها من كثير ممن لم يبلغوا درجة ابن‌المسيب. و لذلك وحده آثر أن يضاعف جهده فى الاستعداد للقاء الله تعالى، و أن يكون ما بقى من عمره من أيام معدودة عملا- متواصلا لله تعالى رجاء أن يكون له منه رحمة أو طريق الى رحمة الله تعالى. أما أن يكون ابن‌المسيب جافيا للامام فلا. فهو يعرف قدر الامام و يدرك منزلته من النبى صلى الله عليه و سلم، و مكانه من الورع. فقد قال له

رجل: ما رأيت أورع من فلان. فقال سعيد: هل رأيت على بن الحسين؟ قال: لا. قال سعيد: ما رأيت أورع منه. و كان دفن الامام بالبقيع. و ليس فى ضريحه الموجود فى مسجده بالقاهرة. فهو ضريح رمزى رضى الله عنه، و قيل: ان فيه زيد بن على بن الحسين. والله أعلم. تم كتاب الامام السجاد على زين‌العابدين الحمدلله اشراف محمد بن على بن يوسف مكتبة القاهرة الأزهر ۵۹۰۵۹۰۹ ص. ب.:۹۴۶ العتبة

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ ُبنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة "الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة "للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبيّة، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد

جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّی بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفيق.

للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹